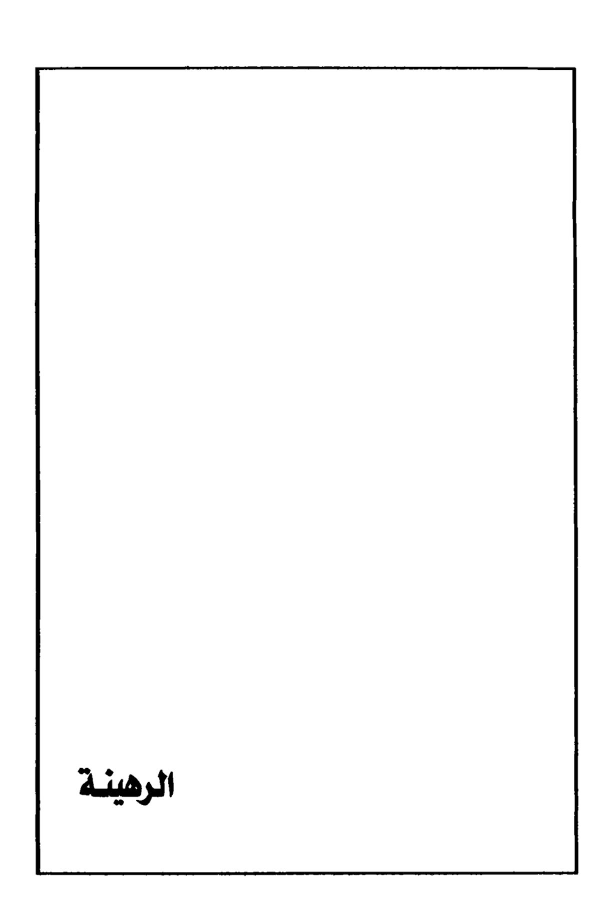
مكتبة
الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

الروائع



8


الرهينة

بالتعاون مع منظمة اليونسكو
(كتاب في جريدة)

الرهينـــة

زيد مطيع دماج



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الروائع)

الرهينة

زيد مطيع دماج

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الفصل الأول

كم هى جميلة هذه المدينة! شاهدتها لأول مرة عندما أخذت من قريتى ووضعت فى قلعتها (القاهرة) بين رهائن الإمام.

أخذنى (عكفة)[1] الإمام ذوو الملابس الزرقاء عنوة من بين أحضان والدتى ومن بين سواعد أفراد أسرتى المتبقين.

لم يكتفوا بذلك بل أخذوا حصان والدى تنفيذاً لرغبة الإمام.

كان يوماً معتدلاً، خفت فيه حدة هطول الأمطار لتتيح لنا مشاهدة المدينة والقرى البعيدة المتلألئة فوق الجبال، كان الجو صافياً. إنه (علان)[2] شهر التأهب للحصاد.

كنت مع زميلى (الدويدار)[3]، (الحالى)[4] كما يسمونه، على سطح دار (النائب)[5] العالى. لا أدرى لماذا أحببت صداقته، ربما لتقارب السن، وربما لعملنا المشترك.

كنت قريب العهد فى منزل (النائب)، نائب الإمام و(عامله)[٦] على المدينة وما يتبعها، عندما أخذونى قسراً من قلعة القاهرة، معقل (الـرهـائـن)[٧]. وأدخلت من بوابة قـصـر النائب وأنا أتذكر نظرات الازدراء التى ودّعنى بها زملائى (الرهائن).

كنت على علم بأن بعض (الرهائن) قد أخذوا إلى قـصـور الإمـام وبعض نوابه وأمرائه (دوادرة)، وكنت أسمع أن بعضهم قد تمكن من الفرار والبعض قد فشل، فكبلوه بالقيود الحديدية فى قلعة القاهرة مدى الحياة.

الشيء الذى لم أكن أعرفه هو معنى (الدويدار) وما هو عمله؟ ولم أكن أعى أى تفسير يقال، ربما لصغر سنى.

- من شروط (الدويدار) أن يكون صبياً لم يبلغ الحلّم.

هكذا كان يقول أستاذنا (الفقيه) السجين أيضاً معنا، والمكلف بتعليمنا القرآن والفروض والطاعة فى قلعة القاهرة معقل الرهائن.

- يقوم (الدويدار) حـالياً بعمل (الطواشىّ)[٨]. وعندمـا تبـدو علينا الحيرة يقول:

- و(الطواشى) هم العبيد المخصيّون.

فنزداد حيرة أكثر.

- والخصىّ، هو من تضرب خصيته.

ونحتار أكثر أيضاً من جديد متألمين لهذا العمل القاسى فيقول:

- لكى لا يمارس عملاً مشيناً، جنسياً، كمضاجعته نساء القصور، أى بمعنى آخر يجب أن يكون فاقداً لرجولته، أى بمعنى آخر، عاجزاً.

ونحتار أيضاً، فنقول:

- هذا يكفى، مفهوم؟

- غير مفهوم يا (سنَا)[٩] الفقية.

يقوم غاضباً لردنا الجماعى الذى كان يعتبره وقحاً أو وقاحة، ونصيح بنشيدنا المعتاد:

- غفر الله لك يا سيدنا، ولوالديك مع والدينا. إلخ.

* * *

كان بعض الرهائن ممن مارسوا أعمال (الدويدار) ثم عادوا إلى (قلعة القاهرة) مرة أخرى لبلوغهم الحلم كما يقول الفقيه: يحكون أشياء غريبة وعجيبة علينا.

وكنت ألاحظ أن معظم العائدين منهم إلى القلعة قد تغيرت ملامحهم، حيث غدوا مصفريّ الوجوه بالرغم من ظهور نعومة شاملة فى أجسامهم مع شيء من الترهّل وذبول فى غير أوانه.

كنت ألاحظ أيضاً اهتمام حرس القلعة بهم، هؤلاء ناعمى الملمس رقيقى الأصوات، بملابسهم النظيفة المرسلة حتى الأرض، وبتلك (الكوافى) المزركشة التى حاكتها نساء القصور فوضعوها على رؤوسهم لتخفى شعرهم المجعد الممشط، الذى تفوح منه رائحة الدهون المعطرة التى يستنشقها بلذة أفراد الحرس، والفقيه مدرّسنا أيضاً الذى يبالغ فى

مراعاته لهم بسماجة أكثر مما يلزم، مما كان يدفع ببعضنا للاحتجاج والتذمّر لهذه المعاملة المتميزة فيصيح غاضباً:

- أوباش، اخرسوا يا متوحّشون، أعوذ بالله من أشكالكم وطباعكم أيضاً!

- .. غفر الله لك يا سيدنا، ولوالديك مع والدينا، يا حنّان يا منّان.

وينفض الرهائن من الدرس ويتّجهون إلى سطح السور المطل على المدينة يمرجحون سيقانهم فى الهواء، وينظرون إلى الأفق البعيد، كل يبحث عن قريته وراء الجبال.

كان (الفقيه) مدرّسنا، رغم وجود العصا فى يده، لا يجرؤ على رفعها على أحد منا.

حاول مرة وضرب بها أحد الرهائن، فأدى ذلك إلى كسر ذراعه ونتف لحيته، ولم يعاود ممارسة ذلك مرة أخرى.

* * *

عندما وصلت إلى دار (النائب)، فرح صديقى (الدويدار) بى، وغمرته سعادة لم أكن أتوقعها. وبدأ يعرفنى على كل جزء من القصر الواسع وملحقاته، وكنت أصادف، وأنا معه، نساء من مختلف الأعمار وعلى مستويات متفاوتة من الجمال والهندام وحسن الملبس.

كنت أنزوى عندما كان يقوم بتعريفى بهن:

- هذه عمة النائب.

- هذه ابنة النائب.

- ...

- وهذه أخت النائب. المطلّقة.

- ...

- وهذه زوجة النائب الثانية.

- ...

- وهذه الأولى.

- ...

- وهذه الخادمة الجديدة، إنها جميلة كما ترى، أليس كذلك؟

- ...

- وهذه القديمة.

- ...

- وهذه التى تحلب الأبقار.

- ...

- وهذه المربيّة. مربية الأطفال. و و و.

ولم أكن أجيب أيضاً. كنت أنكمش حين يربّتن كتفى، وأنفر حين تمتد يدى بعضهن لقرص وجنتى أو فرك شفتى بتلذّذ.

كنت أتقزز من ذلك، بينما كان زميلى يضحك ملء شدقيه ويهرع بى من السلالم الواسعة المرصوفة بالحجارة المربعة ليقودنى إلى (الحمّام) التركى.

سرداب وقباب وممرات كلها مرصوفة أيضاً بالحجارة المربعة السوداء، ملحمة «بالقصاض» المصنوع من النورة البيضاء.

البخار يتصاعد بكثافة عند (القمريات)[١٠] الرخامية الجاذبة للضوء، ترددت فى الدخول، لكن زميلى قال:

- لا تخف، ليس اليوم للنساء!

- للنساء و الرجال، لن أدخل هذا المكان مرة أخرى.

- هل تعرف أننا الوحيدان فى هذا القصر الذى يحق لنا دخوله فى أى وقت؟ سواء كان ذلك يوم النساء أو يوم الرجال؟

شعرت بجسمى يقشعر وقلت:

- لن أدخله أبداً.

قال وقد جذبنى خارجاً نحو اسطبل مهجور للخيل:

- سوف تدخله مستقبلاً!

بدأ يشوقنى بحكايات لمشاهدات عاشها داخل ذلك الحمام وعن النساء الكبيرات والصغريات والعوانس منهن بالذات، وكيف يغمرهن الفرح بمقدمه لخدمتهن.

* * *

كان اسطبل الخيل واسعاً، تنبعث منه رائحة ذكّرتنى (بسقل)[١١] منزلنا فى الجبل، رائحة (روث) وبول البقر والثيران ممزوجة برائحة التبن و(العـجـور)[١٢]، وأصوات الدجاج المنعجة لقدومنا بينما كانت تنبش بأظفارها أكوام السماد باحثة عن الحشرات.

كم كان والدى حريصاً على بقاء (النواقيس) النحاسية على رقاب الثيران!

كان وقع أصواتها الموسيقى يطربنى كلما مررت (بسقل) دارنا، أو فى المراعى أو عند النبع.

حتى الجـمال والحـمـير فى جبلنا كـانت تعلق على أعناقـهـا تلك الأجـراس النحـاسيـة القـديمة التى تحـذر الناس والأطـفـال بالذات فى الطرقات والأزقة.

لم أشـاهد فى اسطبل النائب، ذلك الواسع، سـوى بغلتين فـقـط، أمـا أبقاره الحلوب، فهى فى مكان قريب من باب قصره الخلفى.

وعندما تملكتنى ادهشة أسعفنى زميلى (الدويدار) بالإجابة قائلاً:

- الخـيل يأخـذهـا الإمـام وولىّ عـهـده سيف الإسـلام الأمـيـر، إلى قصورهم، ولا يبقون سوى بعض البغال والحمير.

- ولكنى لا أجد حماراً واحداً؟

- أمثالى وأمثالك، والآخرين!

لم ترق لـى عبـارته التـى يعـدّها نوعاً من الممـازحـة الظريفـة، وقـد توقّفنا عند باب الأسطبل لنواجه فناء القصر الواسع حيث اكتشفت أنه مكوّن من عدة قصور، منها القديم ومنها الجديد، قال زميلى:

ـ تلك الدار القديمة المبنيّة بالآجرّ، مخصصة لأخت النائب المدللة والمطلقة وهى جميلة.

ـ وكل هذا من أجلها؟

ـ لأنها من أمّ أخرى، تركت لها والدتها ثروة أكبر من ثروة والد النائب.

لم أسأل بعد ذلك، فقد انشغلت بالتطلع إلى الأماكن الأخرى فقال:

ـ اسمها حفصة، (الشريفة)(١٣) حفصة.

أطرقت مستمعاً، فتمهل قليلاً ثم قال بعد أن بلع تنهيدة كانت ستخرج من جوفه:

ـ استطاعت بثباتها أن ترغم ابن عمها على أن يطلقها، وظللت مستمعاً فاستمر قائلاً: وحدثت أزمة كبيرة. تدخل فيها ولى العهد مولانا لصالحها.لم أجبه وإن كنت قد حاولت التساؤل عن سبب الطلاق لكنه استرسل مجيباً: كان زواجها من ابن عمها فى صالح النائب، هززت كتفى فاستمر قائلاً:

ـ لأن النائب متزوج بأخت ابن عمها.

ابتسمت لهذه الفزورة اللغز، فقال:

ـ وخوفاً من أن يؤول الميراث إلى الغير، تم الزواج، وسيكون الإرث متوازناً

أعدت اهتزاز كتفى بابتسامة استفسار فقال:

- لكنها رفضت ابن عمها منذ الليلة الأولى،، كان يسهر عادة حتى الفجر مع القات.

نفضت جمود استفساراتى بأن قلت سريعاً:

- ألهذا السبب تم الطلاق؟

ابتسم وقد انتشى لحضورى المباشر معه قائلاً:

- ليس هذا هو السبب، هناك أسباب أخرى مهمة، منها، عجزه التام عن نيلها، لضعف فيه متأصل، ولكبر سنه أيضاً، فلديه عدة زوجات وعدة أبناء لا حصر لهم.

لم أندهش لذلك ولم أستفسر أكثر من اللزوم، فقال ونحن نمشى نحو ذلك المنزل وقد شدنى كلامه:

- هى صغيرة، أصغر أبناء العائلة، وكان والدها يحبها ويدللها، محبة فى والدتها التى كانت أصغر زوجاته وأجملهن وأكثرهن ثراء.

لم أشعر بالإرهاق ذلك النهار، بالرغم من أن صاحبى قد جال بى معظم جوانب عالمه العجيب.

كان فرحاً ومرحاً، متشبثاً بى، تغمره السعادة لوجودى معه، فكم أصوات نادته دون أن يجيبها، أو يأبه لها!

كانت غرفته تقع فى منعطف أحد السلالم الواسعة، جذبنى إليها وهو يقول:

- هذه غرفتنا.

ـ غرفتنا؟

ـ نعم غرفتنا!

اتجهت صوب النافذة الصغيرة الوحيدة داخل الغرفة، استرحت مقرفصاً بجوارها وأمعنت النظر بعد ذلك فى داخل الغرفة، كان قد خرج فجأة، فى الغرفة فراش صغير قد برز التين المحشو به من ثقوب عدة، ولحاف شبه صوفى أسود اللون معطف عند مرقد رأسه فوق مخدة متسخة يكسل أن يغسل كيسها القطنى المزركش.

يحف بزاويته تلك، صندوق خشبى ملون بأصباغ رخيصة، قد وضعه بجانب الفراش المترىء لمنعه من الإنزلاق أثناء نومه، ويسهل عليه فتحه متى شاء، ويحفظ بداخله ملابسه وأشياءه الأخرى.

توقف نظرى عند بعض الصور التى ألصقها على الحائط، ولا أدرى كيف استطاع لصقها وإن كان يخامرنى الشك بأنه قد استعمل فى ذلك لعابه.

صور متكررة لفتيات جميلات ذهبيات الشعر، زرق العيون لم أشاهد لهن مثيلاً فى حياتى.

قال لى مرة إنه يقوم بقص صورهن من بعض الصحف والمجلات التى تصل إلى النائب والمجـــلات التى تصل إلى النائب من (بلاد مدخل)[١٤] . كانت هنالك أيضاً بعض صور لأشخاص بألبسة عجيبة، كان يقول كالمعلّم العارف:

- هذه صورة (الفوهور)، هتلر وهذا (موسليني)، ملك الطليان، أما هذا الشيخ الوقور فهو (المختار)، عمر المختار.

كان مزهواً بأنه يعرف الكثير مما أجهل، فيزداد تعالياً عندما يكلمني عن سماعه لأخبار العالم من مذياع النائب، وبأنه الوحيد الذي يقوم بتشغيل ذلك الجهاز الذي يلتف لسماعه حشد كبير من الناس داخل القصر وخارج أسواره أيضاً، يعرف كل الأوقات وجميع المحطات والرموز والألغاز، كان يضحك مني ساخراً وهو يقول:

- الآن ستدق ساعة (بيغ بن) معلنة الساعة الرابعة مساء بتوقيت (غرينتش).

- الآن موعد تعليق (يونس بحري) من إذاعة (برلين). كنت أضحك بتعجب لهذا الكلام الجديد عليّ.

أحضر لي فراشاً ولحافاً، وسألني، قبل أن يلقي بهما من على كتفه، عن أي زاوية أختار داخل الغرفة، وأجبته مازحاً:

- الضيف في حكم المضيف.

ضحك وقد رمى الفراش واللحاف في الزاوية المقابلة له، ثم جلس بجواري، وبدأ يحكي من جديد:

- أنت لا تعرف طبعاً صندوق الطرب؟

لويت شفتي مستغرباً للكلام الجديد، فقال:

- صندوق الطرب، عبارة عن جهاز أكبر من الراديو، لكنه

يصدر الأغاني الجميلة، (للقعطبي) و(العنتزي) و(الماس) والشيخ (علي أبو بكر)[١٥].

في الحقيقة سرد لي أسماء ربما سمعت عنها فقط، لكنني لم أسمعها تغني مطلقاً، وسرد لي أسماء أخرى عرفت فيما بعد أنها لمطربين من بلاد العرب الأخرى.

لا أدري ما الذي أدفعه بحماسة لجذبي والسير بي إلى مكان رائع في القصر، مرتّب في غاية النظام والنظافة، وأجلسني على مفرشة فارسية ثم أشعل لمبة غازية عرفت أنها (لمبة الألف)[١٦] المضيئة بشعلتها الدائرية التي كان لدينا في منزلنا واحدة منها أخذها جدّأي إلى ديوانه من (حملة لحج)[١٧] مع (سعيد باشا) القائد التركي. وكانت تضاء لنا في شهر رمضان فقط، وقد خذها (العكفة والسواري)[١٨] فيما خذوا من بيتنا.

وبدأ صاحبي يحرك صندوق الطرب الكبير المصنوع من خشب الأبنوس، ووضع الاسطوانة الأولى والثانية والثالثة. حتى بدأت أمل فتثاءبت.

عدنا. وبدأ يكمل مشواره من جديد، فقلت متأدباً:

- ألا ترى بأننا سنمكث معاً وقتاً طويلاً، وخاف أن لا نجد ما نتكلم فيه مستقبلاً؟!

ضحك وقد غشى الظلام المدينة والقصر وغرفتان أيضاً. حيث لم يكن لديه ما نستضيء به سوى فانوس صغير قد علاه الصدأ مرمياً في

زاوية من الغرفـة، تعلوه الأتربة والأوساخ، والحشرات الميتـة. فأصبح وجوده وعدمه سواء.

ارتمى على فـراشـه بعـد أن اطمـأنّ على وضـعى. وبرغم التـعب والإرهاق لم أستطع النوم، ظلت عيناى مشدودتين إلى النافذة الصغيرة والوحيدة الصادر منها ذلك البصيص من نور النجوم.

سمعت وقع أقدام على السلالم، خفيضة وحذرة، توقف ذلك عند باب الغرفة غير المقفل بإحكام، ثم سادت لحظة صمت سمعت خلالـها صوتاً خافتاً ينادى:

ـ عبادى. عبادى. يا عبيدى. يا حالى. بس. بس.

كتمت أنفاسى وقد أحكمت اللحـاف حول وجهى، شعرت بـه قام من مرقده.. وتكرر الصوت هذه المرة من داخل الغرفة. تأكدت أنه قد قام مضطرباً ثم بترو قال:

ـ من؟ ماذا تريدين يا (زهراء)؟

لم تجبه، بل شعرت أنها قد اقتربت منه وجلست بجواره بينما قال:

ـ ألا ترين أن لدى ضيفاً هذه الليلة؟

ـ أعـرف ذلك، ومـا الذى جـعلك ترقـده لديك، فـفى الدار غـرف لا حصر لها كعدد أيام السنة.

لم يجبها. وشعرت بعد ذلك بأنها تقترب منه أكثر تحول همسها إلى فحيح ملتهب. كان يحاول أن يثنيها متعللاً بوجودى ولكن كل محاولاته باءت بالفشل. وأصبح الفحيح مشتركاً.

لم أشعر بالخوف من حياتى كهذه الليلة. وانتهى الفحيح لتأخذ منه قُبلة علا صوتها مدوياً مما جعله ينزعج خوفاً من أن أكون متيقظاً.. وتسللت خارجة.

شعرت به يتوجه نحوى بعد ذلك ليطمئن. ثم همد راقداً وقد علا شخيره ليطغى على أصوات الديكة وكلاب المدينة التى زادت من سهادى.

وتجلجلت مع الفجر أصوات العساكر والحرس بأنشودة الصباح الباكر المعتادة:

- يا لله رضاك. يا لله رضاك. وارضى علينا برضاك.

- واحنا طلبناك عظيم الشأن. يا فاتح بوابه.

نهضت من نومى الساهد كالمضروب. جميع مفاصل جسمى منهكة. فتحت النافذة الصغيرة لأرى شبه سحابةِ وباء صفراء تخيم على المدينة.

كان صاحبى قد نهض مبكراً قبلى بعد أن رتب فراشه. ثم عاد وفى يده (جمنة)[١٩] صغيرة من القهوة وجفنة ولقى بتحية الصباح باسماً كعادته.

- عساك نمت مرتاحاً.

هززت رأسى مجيباً. أصلحت من ملابسى. واتجهت معه إلى (دكة)[٢٠] العساكر عند البوابة الرئيسية للقصر. شعرت بأن ذلك أنسب مكان يلائمنى حتى تنتهى هذه الوحشة.

كان العسكر خليطاً من جند (نظام)[٢١] وجند (برّانى)[٢٢] ببنادقهم الموزر والصـابة والبـشلى الطويلة. وكـان جند (النظام) أكـثـر دقـة وانضباطاً، حتى فى مظهرهم ومرقدهم ورفض الخضوع حتى لوامر النائب بإخلائها.

كان (كاوش)[٢٣] جند النظام على يمين البوابة. تعلوه غرفة حراسة يسكنها (البورزان)[٢٤] الذى قيل بأنه احتلها نهائياً ورفض الخضوع حتى لأوامر النائب بإخلائها.

أما (كاوش) جند البرانى فكان خارج البوابة على يسارها يطل على الميذان الفسيح الذى تطل عليه شجرة (طولقة) عملاقة من الجانب الآخر تظل سبيل ماء تعلوه قبة صغيرة بيضاء ورواق مصلول بالحجارة يقوم النائب فيه باستعراض شكاوى الرعية اليومية مع عسكره وكتبته وحشمه وخدمه.

استقبلنى الجند نظاماً وبرّانية بكرم واضح اندهش له صاحبى، ويبدو نهم كانوا من منطقتى، يعرفون أسرتى، وابن من أكون.

واتكأت على حجر كان معداً لهذا الغرض، بينما بدأت الحياة تدبّ فى فناء القصر وملحقاته الجديدة. بعضها كانت قصوراً لآباء وأجداد النائب.

وكـان السـور المحـيط بكل ذلك عـالياً، لا تنف منه سـوى فـروع الأشجار الباسقة.

وبدأت النوافذ العديدة تفتح، بعضها بصوت مزعج. تشرئب منها بعض وجوه نساء بشعورهن المجعدة وبعضهن بما يغطى ذلك، مجموعة عجيبة ومتنافرة من النساء.

* * *

كان الجند قد استقبلوا صاحبى الدويدار (بزامل)[٢٥]:

- يا دويدار قد أمك فاقدة لك.

.. دمعها كالمطر.

..كم كنت معجباً برشاقته ونشاطه.. ويبتسم! كان ذكياً سريع البديهة قليل الكلام، حاضر النكتة، يعرف نفسية كل فرد من شخصيات القصر وملحقاته، نساء ورجالاً، بل وأطفالاً أيضاً، كذلك عساكر البوابة، نظام أو برانية، والبورزان أيضاً.

كان يحوم كالنحلة، من القصر إلى ملحقاته ثم يعود ليجلس بابتسامته المعتادة قليلاً ثم يقوم من جديد يدب ويحوم وهكذا.

جلس بعض الجند حولى يتفحصوننى بدقة، وبعضهم الآخر يفرش ابتساماته الواسعة السمجة على شفتيه المتدليتين.

لم أشعر بأنهم غرباء عنى، ففى معقل الرهائن، قلعة القاهرة، أناس مثلهم، زملائهم. كان يطيب لى المكوث معهم لأن معظمهم من منطقتى ربما كهؤلاء، يعرفون أسرتى وعشيرتى وقبيلتى، وابن من أكون.

كم كنت أحلم بأن أصبح جندياً مثلهم، ولو حتى جندياً (برانياً)، أحمل السلاح وأنظفه كل صباح كما يفعلون، وأزينه بقطع من الفضة أو النحاس وبرقع من القماش المزركش، وأدهنه بزيت نخاع سيقان الكباش (المحنوذة). و(أتنفذ) على الرعية لكى أكسب رزقاً وفيراً.

وأطل (البورزان) من على سلم غرفته الطينية، وحيا بواسطة بوقه النحاسى زملاء، ورغم بلوغه سن الستين وربما أكثر، إلا أنه يبدو وسيماً بحيوية كأنه شاب مراهق. كان الوحيد حليق الذقن، أما شاربه المختال بعنترية هلالية، فقد كان مصبوغاً بالحناء.

كان ملبسه نظيفاً على وجه العموم لأنه أبيض اللون وهو اللون المحبب إليه. كا شيء فيه مرتب بانسجام متناه فى الدقة. من عمّته حتى حذائه التقليدى الذى كان يتباهى به على زملائه الحفاة من الجند النظام أو البرانى، أو (الطبشية).

كان الوحيد الذى يملك حذاء (عدنياً) يحدث صوتاً تصر له الأسنان. ويذكرنى بالنشاء الذى يضاف إلى المحلبية فى شهر رمضان.

تأملته وهو يقفل باب نوبته، ثم ينثنى كعصفور مرح نحونا، كانت بندقيته موشاة بالحلى الفضية وبقطع من العملات النقدية الأجنبية المخرومة من وسطها، يتأبطها على كتفه اليسرى وقد احتزم (بجنبيه) ذات رأس (صيفانى) أصيل مشدود بقوة على خصره الدقل، و(طياره)[٢٦] المتدلى من على كتفه اليسرى من الأمام والخلف مملوء بالذخيرة (الصاغ سليم)[٢٧] وقد تدلى من خصره بوق نحاسى مزين بالذوائب الملونة بلون الذهب من حزامه ليستقر على فخذه اليمنى،

بينما كان مئزره النظيف لا يتغدى ركبتيه حيث تظهر عضلات ساقيه المفتولة الخالية من الشعر والمدهونة بما علق فى يديه من شحوم وزيوت وجباته الدسمة الدائمة. والمصبوغ بها أيضاً حذاؤه العدنى وشعر رأسه الطويل وكذلك رأس جنبيّته.

وضع بندقيته بلطف وحذر على جدار البوابة وجلس بجوارنا.

تساءل عنّى بنظراته، كانت عيناه مكحولتين بكثافة واضحة بالإثمد الأسود وبطريقة بارعة فى الإغراء والجاذبية، وبصوت شجى:

ـ يا دويدار.

قد أمكفاقدة لك

دمعها كالمطر

قلت لصاحبى وقد استراح وأراحنى وأنا أتأبط ذراعه:

ـ لم تعرفنى بزهراء!

نظر إلى ملياً ثم ضحك وقد ترك ذراعى قائلاً:

ـ هى أخت النائب العانس!

ـ عانس؟

ـ نعم.

ـ ولكن؟

ـ ولكن لها طرقها الخاصة.

- لم فهم!

- تحفظ الأيام القمرية بدقة!

لم أفهم كلامه بينما جذبني نحو دار (حفصة) وهو يقول باسماً بمكر:

- دعك من (زهراء)، هنا يسكن أجمل من خلق الله في هذا البيت.

- تعني الشريفة حفصة أخت النائب؟

- نعم. هي الصغرى ولها جاذبية تشد أي مخلوق نحوها ليقع في حبها ويهيم في هواها، ويموت أيضاً.

- إلى هذه الدرجة؟

- نعم، مسكين ابن كامل سائق النائب المقرب، مات في حادث غامض، قبل ذلك، وفي اعتقادي أنه انتحر من أجلها، هذا اقتناعي، وهو صحيح رغم معارضة الآخرين.

- أهي قاسية لهذا الحد؟! كما فهمت، إنما وجود حاجز كبير، وربما أشياء أخرى سأشرحها لك فيما بعد.

لمأحاول أخذ المزيد من المعلومات منه، فقد وصلنا إلى الباب الذي فتحه بجرأة، ثم أخذ بيدي إلى الدرجات الأولى، وأنا أحاول أن أمانع وقد شعرت برهبة طاغية.

كنت أتوقع أن أجد اشريفة حفصة في كل منعطف من منعطفات السلالم الطويلة، لكنني وجدت أن الدار مليئة بنساء يمكن أن يكنّ من ضمن حشم وخدم الشريفة حفصة.

ألقى صاحبى بتحياته على كل من التقينا بهن مع تعريفهن بهويتى الجديدة (كدويدار)، العملية نفسها فى كل دار!

كانت (المنظرة)[٢٨] تطلّ على الساحة. حجرة صغيرة وخلفها باب طرقه صاحبى بأدب جمّ ثم فتحه قبل أن يؤذن له، وجذبنى إلى داخل المظرة المفروشة بالسجاد الثمين الذى لم أشاهد مثله فى حياتى، والستائر مرفوعة والطنافس النحاسية والفضية تملأ الأرفف الجّصية عرض الحوائط.

كانت (الشريفة) متتكئة على حافة النافذة فى رأس المنظرة وقد برز شعرها الأجعد من خلال ثانية منديل برتقالى اللون. وتراءى جسدها الأبيض من خلال ثوبها الشفاف الحريرى، وكانت متكئة بإحدى يديها على النافذة وقد مدّتها إلى الإمام، أما الأخرى فكانت على خدها وهى سابحة بنظرها وفكرها نحو الساحة.

تأملت يدها، كانت مزينة بأساور من الذهب ومزركشة بالحناء والخضاب الأسود المتعرج على أنامل كالشمع الأحمر الممزوج لون اللبن الصافى.

استدارت كنمرة مسترخية الملمس وقد أصلحت ثوبها على ركبتيها وغطت ساقيها. كنت خلف صاحبى، صاحبى هذا الذى سيورطنى فى مواقف حرجة أنا فى غنى عنها. لمحت نظرتها نحوى مستفسرة بهاتين العينين الواسعتين المكحلتين بجاذبية متوهجة، لكنها أشاحت نحو صاحبى، وبدأت تحادثه وكأن لا وجود لى!

احتفظت بمكانى خلف صاحبى بأدب وحياء فرضاً علىّ. ولم أحاول حتى مجرد التدخل فى تنبيهه لكى نغادر هذاالمكان المهيب. وبعد فترة قالت بصوتها الرخو العظيم:

- من هذا؟

- دويدار جديد يا مولاتى.

- من أين جىء به؟

- من القلعة.

- هه. رهينة؟

- نعم.

وسادت فترة صمت. كنت فى مكانى خلف صاحبى مطرقاً بنظرى نحو الأرض متأهباً للمغادرة فى أى لحظة يسعد بها صاحبى.

اقتربت منا فجأة وقد امتشق قوامها كأنها شمعة ملونة تذيب كل نشوات اللذة الطاغية.

لمست بيدها رأسى وقالت:

- ما اسمك؟

لم أجبها، فأسعفنى صاحبى بلباقة الدويدار.. نظرت إلىّ وكنت مشدوهاً بها، لم أجبها أيضاً ولم تحاول تكرار ذلك.

وغادرنا المكان وكأن أحد جبال اليمن الكبرى قد انزاح عن صدرى.

لم أنم الليلة. تقلبت من زاوية إلى أخرى. أصلحت مخدتى تحت رأسى عدة مرات دون جدوى. قمت إلى النافذة. شبه النافذة لأتأمل النجوم وبصيصاً من ضوئها. مع أصوات متفرقة وبعيدة لكلاب تنبح، ولكن دون جدوى.

صورتها ما زالت أمامى رغم كل ذلك. بصوتها الرخو المبحوح الذى يملأ مسامعى. تخيلتها بابتسامتها المتسائلة عنى؟ عمّن أكون؟ ابن من أنا؟ ما اسمى؟ ومن أى منطقة أتيت؟

تساؤل عادى وعابر ضخّمه خيالى المراهق، ربما لا ولم تعرنى أى اهتمام كما تخيلت!

ولم تشعر بى حقاً، ولا بوجودى داخل غرفتها مع صاحبى. هذا أكيد.

ما زال قدّها الفارع يتماثل أمام مخيلتى وهى تتلوى كأفعى سلسة الملمس. وربما كغانية من الحور العين. لم أكترث تلك الليلة لفحيح زهراء مع صاحبى وهمسها المثير الذى كاد فى وقت مضى أن يصيبنى بالجنون.

لا أدرى كيف علقت فى كل حواسى وكيانى ومشاعرى هذه (حفصة). نعم.. الشريفة (حفصة)!

* * *

استيقظت ذات صباح. كان صاحبى قد قام مبكراً كعادته، يتجول بين أرجاء القصر وملحقاته. اتجهت إلى البوابة الرئيسية حيث يتجمع العساكر النظام والبرانى والبورزان عادة. كان البورزان قد نزل من

على درجات نوبته الحصينة كالعادة مكتمل الهندام كأنه فى ريعان الشباب، وسألنى أحدهم مستفسراً:

- أين الحالى؟

استغربت كلمة الحالى التى تكررت أكثر من مرة كما أتذكر. لم أجب بينما قال زميل له:

- لقد اكتفى بصاحبه، الرهينة.

لم أحاول حتى مجرد إشعاره بالاهتمام، قال بينما اقترب منى آخر وقال:

- من أين أتيت؟

- من الجبل.

- اليمن كلها جبال!

لم أجب.

تقدم آخر وأصبحت حلقة. كنت أنظر نحو الساحة عسى أن يأتى صاحبى.

- قبيلى[٢٩]؟

لم أجب.

- ابن شيخ؟ طبعاً!

لم أجب أيضاً.

قال أحدهم لزميل له:

- اختيار غير موفق لدويدار يعمل فى منزل مولانا النائب.

- المفروض أن ينتقوا (الدوادرة) من المدارس أو من المدن.

قال آخر:

- لا داعى لرهائن القلعة.

ونطق البورزان وقد مسح ساقيه بيديه بعد تناول الفطور المشترك:

لماذا اختاروك؟

- لا أدرى!

- ألم ترفض؟

- ولماذا؟

- لنك ستكون دويداراً.

- قلت لنفسى زهرب من سجن القلعة إلى المدينة. نهض وقد نظر إلىّ بشزر ثم قال:

- لا يبدو عليك أنك تفهم عملك الجديد

- ما هو؟

- ستعرفه قريباً

وأقبل أحد الخدم يبحث عنى، أخذنى معه بين قهقهة العساكر المصحوب بزاملهم المعهود وسرت خلفه. قال لى ونحن نرتقى أول درجات سلم القصر:

- مولانا النائب يريد أن يراك.

لم أكترث وإن كنت زتوقع شيئاً ما اجتزنا عدة طوابق حتى وصلنا إلى منظرة النائب الفخمة ذات النوافذ الواسعة والعقود الملونة التى تعلوها. كان متكئاً بكرشه المنفوخ وبعينيه الجاحظتين وشفتيه المتدليتين كأن ورماً خبيثاً صابهما. وقد مدّ رجليه القصيرتين واللتين عكف عليهما صاحبى يدلكهما برفق ورتابة بأنامله. تخيلته محترفاً فى صنعته.

كانت (المداعة المنيير)[٣٠] تحدث صوتاً نتيجة لنفخ النائب لقصبتها الطويلة فيخرج من فمه دخانها فى الهواء. كانت جمنة القهوة القشر أمامه يرشفها بوسط صينية بيضاء.

سألنى عن اسمى ، وعن اسم والدى، ومن أى منطقة أكون.

تكرم صاحبى بالإجابة بأدب واتزان، وكفانى مؤونة ذلك الرد ظللت واقفاً كما أنا، وصاحبى ما زال منهمكاً بتدليك قدمى النائب بأنامله.

وكان بعض حديث يور بينهما لم أستوعبه لانشغالى بالنظر بانبهار إلى التحف والطنافس التى تملأ المنظرة، منها سيوف مذهبة،وكتابات مزخرفة تغطى معظم أرفف المنظرة وجدرانها.

وفجأة سألنى النائب مباشرة.

- كم عمرك؟

- لا أدرى.

- أو لم يؤرخ لك فى مصحف أو كتاب؟

- الفقهاء فى بلادى يؤرخون لأولادهم فقط.

- وأنتم؟

- نؤرخ لمواسم الزراعة.

لا أدرى هل أعجب النائب بردّى هذا أم أنه امتعض له حيث تململ من مكانه ونهض. فنهض صاحبى وأخذ بذراعى ونزلنا معاً درجات القصر.

قلت له وقد أشرفنا على الساحة:

- ماذا كان يريد النائب منى؟

- مولانا كان يريد منكِ أن تباشر عملك.

ونظرَ إلىّ والبسمة تعلو شفتيه ثم استطرد قائلاً:

- تباشر عملك عند... عند الشريفة حفصة!

تمالكت نفسى فى عدم ظهور أى دهشة على ملامح وجهى وقلت:

- ولماذا عند الشريفة حفصة؟

- هكذا أرادت الشريفة. وأمر به مولانا النائب.

- لكنه لم يأمرنى بذلك مباشرة!

- لقد قال لى ذلك، وهذا يكفى.

- كيف؟

- اعتبره أمراً، ونفذه.

- ولكن؟

- يا زميلى. إإنك لا تعرف مكانتى فى هذا القصر.

- ربما، وحتى الآن!

- لا تتأثر بمظهر غرفتنا وفراشى!

- سامحك الله!

- اعتبرنى الرجل الثانى فى هذا المكان.

- الرجل الثانى؟!

- الغلام الأول، إذا أحببت.

أطرقت قليلاً. هزنى من منكبى وقال:

- لماذا أنت شارد الذهن؟

- أفكر. لماذا هذا الاختيار؟

- غيرك يتمناه.

- أريد تعليلاً مقنعاً.

- مزاج.

- أى مزاج هذا. وهى لا تعرفنى سوى للحظة عابرة!

- بما استلطفتك.

- كنت أنت أجدر بهذا الاستلطاف منى!

- لقد سئمتنى، تريد وجهاً جديداً.

فقط؟

- ... وربما لتوزّع أعمالى على الجميع.

- حتى العساكر، والبورزان؟

جذبنى نحوه بشدة وقد علا صوته الغضب قائلاً:

- ماذا تقصد؟

- كانوا يسألون عنك. عن (الدويدار الحالى)!

ترك منكبى وأطرق لحظة إلى الأرض، ثم قال باسماً:

- ماذا قالوا؟

- لا شىء سوى أننى كنت غير محبب لديهم.

- لا يهمموننى فى شىء، فهم مجرد (عوانس) كعوانس القصر وملحقاته.

- أتعنى ذلك؟

- ألم تلاحظ ذلك، على أشكالهم وطباعهم وحديثهم وتصرفاتهم؟!

جذبنى نحو دار الشريفة حفصة.. قلت له:

- ليس من الآن.

- لماذا؟

- لم َتستدعنى أولاً، وثانياً أريد أن أتحدث إليك حول عملى هذا.

- دويدار.

- لم أفهم؟

- دويدار. وهذا يكفى.

- يعنى: خادم!

- أرقى نوعاً ما.

- لم أفهم!

- ستفهم مستقبلاً!

- قال لى هذا الكلام.. البورزان!

- دعك منه. فهو عانس أيضاً.

ساد صمت لفترة وجيزة، قلت له بعد ذلك:

- لماذا يطلقون عليك. لقب.. الحالى؟!

ابتسم ثم قال:

- من الحلاوة!

- لا تمزح. فأنا جادّ فى سؤالى.

- ستعرف ذلك مستقبلاً!

- قال ذلك البورزان قبلك!

- اسأله عن البقية إذن!

شعرت أنه قد بدأ يغضب، فلم أكرر، وبعد فترة قال لى وهو يرسم شبه ابتسامة على شفتيه:

ـ ألا تريدنى آلآن أوصلك إلى الشريفة حفصة؟

ـ ولماذا هذه العجلة. وهذا الضجر؟

ـ لكن أخلص من هذه المهمة.

ـ أهى بالنسبة إليك تكليف؟!

ـ نعم تكليف.

وأطرقت قليلاً ثم سألته بتودد:

ـ وهل سأبقى معك فى الغرفة نفسها؟

ـ لا أدرى. هذا شىء متروك لها.

ـ أريد أن أعرف فهذا شىء مهم بالنسبة إلىّ.

ـ سوف تقرر هى ذلك ففى دارها ما هو أجمل وأهدأ من غرفتى وهى صاحبة القرار.

ـ حتى لو راجعتها أنت. وترجّيتها فى أن نظل معاً؟

ـ ولماذا هذا الإلحاح؟

ـ مجرد رغبة منى. اعتبره (كرأم) البغل لبغل أو حيوان آخر، إلا إذا كنت قد ضايقتك فى خلوتك!

ـ سنسأل (البورزان) عن هذا غداً!

شعرت أنه متألم منى فقلت:

ـ يبدو أن حكاية البورزان قد علقت فى ذهنك.

ـ لا، أبداً.

ـ مجرد مجابرة عابرة ابدأها أنت.

* * *

وضعت يدى تحت رأسى مستلقياً فى غرفة صاحبى. وقد تكالبت علىّ أحاسيس ومشاعر لم أكن أتوقع حتى مجرد التفكير بها من قبل.

ولمحت لأول مرة ضوء عود ثقاب يشعل فيغمر الغرفة بضوئه، إنه صاحبى يشعل سيجارة رديئة، جلست ثم زحفت نحو النافذة الصغيرة عسى أن أرى أىّ شيء يومض من فوق جبلى الشامخ البعيد.

كان الظلام دامساً، لا بصيص من نور سوى أضواء النجوم البعيدة، قال صاحبى مبدداً وحشة الصمت:

ـ أتريد نفساً؟

لم أفهم مراده فقال:

ـ سيجارة تزيل سهادك وتخفف من أرقك.

كنت أعرف فى القلعة أن السيجارة محرمة وأن من يشربها يعد كافراً وملحداً، ومع ذلك كنت قد سحبت بعض أنفاس منها مع بعض زملائى الرهائن بسرية كاملة وفى أماكن لا تخطر على بال المعلم الفقيه أو الحرس، فى الحمامات الحجرية الكريهة مثلاً، كنت أشعر بالدوار إثر ذلك وقد أصاب بالإغماء.

لا مانع الليلة، لابد من دوار وغيبوبة أنا فى حاجة لهما لكى أنسى، وتناولت من يد صاحبى بقية لفافة ورشفتها حتى كدت أحرق أناملى.

وسبحت مع الدوار والإغماء. ولم أذكر فى الصباح إلا أن صاحبى لم يعد بجانبى. أخذته امرأتان غير زهراء. جلس معهما فى درجات القصر تقبلانه وتعتصران منه أشياء أخرى.

وأتذكر أنه عاد وأغلق الباب وراءه بعنف ثم نام بعمق لم أعهده فيه من قبل، لكننى أيقنت أن تلك اللفافة لم تكن من نوع ما ذقته فى القلعة هى نوع آخر!

كم هو صعب الاستيقاظ مبكراً فى هذه المدينة. وعلى العكس من ذلك، الطراوة والنشاء فى قلعة الرهائن المرتفعة، بالنسبة إلىّ. فى المدينة يقوم الشخص النائم وكأنه مضروب ضرباً مبرحاً، متورماً كأنه طبل أو جذع نخلة خاوية، مسبل العينين، يداعبه القيء والغثيان والكآبة منذ الصباح. ومن النادر أن يرغب فى تناول فطوره أو قهوته، فهو لا يرغب فى تناول أى شيء سوى الماء البارد. وهو نادر وإن وجد ففى أوانى العسكر المبخرة.

ومع ذلك فصاحبى يقوم مبكراً كعادته رغم سعاله الشديد المبحوح طوال الليل وشحوب وجهه مع ضعف فى بدنه يتدرج فى الفترة الأخيرة ويميل لون جسمه إلى الصفرة المقيتة التى توحى بقرب الأجل الحتمى.

اتجهت كالعادة، وبحذر إلى مقر العساكر المعتاد فى البوابة الرئيسية... وهجعت فى ركن بعيد نوعاً ما عن سماع سماجاتهم

وزاملهم الساخر، وأقبل صاحبى قبل أن يكتشف وجودى هناك، وتقبله العسكر باللطف الزائد عن حده كما خيل إلىّ. لكنهم أضافوا إلى لطفهم نشيدهم بذلك الزامل المعاد والمكرر.

أما البورزان فقد غضب عليه صاحبى أشد الغضب. بان ذلك بشكل واضح وصارخ مما أدى إلى توسط الآخرين من العسكر.

وابتسمت. ولم يعر صاحبى ابتسامتى أى انتباه. بل جذبنى نحو دار الشريفة حفصة.

قلت له:

- لماذا هذه العجلة؟

- لكى أنهى مهمتى.

- وبعد ذلك؟

- كلّ فى حال سبيله.

- هل ضقت بى ذرعاً؟

- لا.

- أرجو أن تكون صادقاً.

- ... أنا صادق، أيخامرك شكّ فى ذلك؟

- ولكن لم هذا التسرع الملهوف؟

- لكى أنهى مهمتى المكلف بها.

ـ تريد التخلص منى؟ حسناً!

كأنك تسوقنى إلى مسلخ.

ـ ... لا تكن ظالماً لى ولها. ففى رحابها يستظل الخير.

تسلقت من ورائه درجات الدار، كالمرة الأولى. ولكن هذه المرة كان شعورى يختلف تماماً. أحسست برهبة وإجفال كأننى عصفور نادر يدخلونه إلى قفصه الذهبى ويراد منه البقاء مدى الحياة.

فتح صاحبى الباب كالعادة. كانت الشريفة مطلة على الساحة كعادتها أيضاً فى مثل هذا الوقت. التفتت إلينا بنظرة مهيبة ثم نهضت واتجهت نحونا. ابتسمت لصاحبى دون أن تعيرنى أى اهتمام. وأخذت بيده وأنا أتبعها بنظرى إلى الحجرة الصغيرة. بينما كنت واقفاً أتطلع إلى لا شيء. مرت دقائق كأنها الدهر. امتلكتنى أثناءها موجة عارمة من كبرياء صلفة فقدتها منذ أمرت بالنزول من قلعة الرهائن إلى المدينة.

دخلت وعبرت من أمامى. لم تنظر إلىّ. واتجهت إلى زاويتها المفضلة المطلة على الساحة ثم اتكأت وسألتنى:

ـ ما اسمك؟

فقلت:

ـ عرفت ذلك البارحة.

نظرت إلىّ بحدة غاضبة ثم قالت:

- كم عمرك؟

- لا أعرف؟

- ألم يؤرخ لك أبوك فى كتاب أو مصحف يوم ولدت؟

- لا.

- عجيب!

لم إرد أن أقول لها بأن الفقهاء وبعض الأعيان من منطقتى هم الذين يؤرخون لمواليهم فى الكتب والمصاحف القديمة، وبأن أسرتى كغيرها من الأسر الزراعية لا تهتم إلا بتاريخ مواسم الزراعة.

وبدا لى كأن السؤال عن العمر وتاريخ المولد شىء مهم فى حياة أعيان هذا القصر وملحقاته. ذكرنى بكلام أستاذنا الفقيه فى القلعة عن حكاية (الطواشى) والدويدار، والعلم وسن البلوغ!

ومرت فترة وجيزة خيم عليها الصمت، قامت بعدها بقوامها الصارخ، فأسبلت نظرى حيث ما زلت واقفاً فى مكانى كما كنت، فقالت بتودد:

- تعال معى.

- وتحرك جسمى بعدها وهى تقول:

- سأعرفك على الدار.

- أعرفها.

- من عرفك عليها؟

ـ صاحبى.

ـ الدويدار-المسلول؟!

ـ الدويدار الحالى.

إنه لا يعرف ما أريد أن تعرفه، وتفهمه وتتبعه وتلتزم به حرفياً.

لم أجب وقد صدمتنى (جلافتها) بدمغ صاحبى بمرض السل. قالت. وقد نظرت إلى بتروّ لأول مرة:

ـ ما أدراه. هذا صاحبك بما أريده منك؟

ولم أجب. فأخذت بذراعى لأول مرة وجذبتنى نحو درجات الدار، كأن شحنة كهربائية مست يدى، من الطبقات السفلى للدار حتى السطح والمطبخ الذى يعلوه مع مخزنه الخاص بلوازمه.وظلت يدى فى قبضتها والعرق يزف بغزارة من وجهى، حتى يدى أصبحت مشلولة فى كفها. وبقيت يدها المطوقة بأساور من الذهب ونقوش الزينة ممسكة بيدى.

طفنا كل شبر فى الدار. كانت فرحة تعلوها البهجة حتى وهى تقابل العجائز فى الأسرة وبعضاً من خدمها وحشمها فى الدرجات أو الأماكن التى طوّفتنى بها.

حواشى الفصل الأول

(١) عكفة: حرس الإمام الخاص.
(٢) علأن: نجم زراعى يأتى قبل حصاد الغلال وهو أحب نجوم الزراعة فى اليمن.
(٣) الدويدار: صبى حاضر البديهة يستخدمه الأمراء والحكام فى قصورهم.
(٤) الحالى: الجميل.
(٥) النائب: الوالى - نائب الإمام.
(٦) العامل: مدير الناحية.
(٧) الرهائن: أبناء المشايخ ورؤساء القبائل الذين يعتقلهم الإمام لضمان ولاء آبائهم.
(٨) الطواشى: الخادم الخصىّ. العبد الخصِىّ.
(٩) سنًا: لقب مدرس الكتاب (مختصرة من سيدنا).
(١٠) القمريات: نوافذ رخامية.
(١١) بسقل: أسفل المنزل.
(١٢) العجور: قصب الذرة (علف البهائم).
(١٣) يطلق لقب الشريفة على بنات الأسر التى تدّعى نسبتها إلى الرسول الكريم (ص).
(١٤) (بلاد مدخل): كانت تطلق هذه التسمية على البلدان الخارجية وقتئذ.
(١٥) أسماء لفنانين يمنيين راحلين.
(١٦) لمبة الألف: مصباح غازى.
(١٧) حملة لحج: حملة عسكرية يمنية بقيادة تركية ضد الإنكليز فى منطقة لحج اليمنية التى
(١٨) كانوا يحتلونها.
(١٩) السوارى: سلاح الفرسان.
(٢٠) نمعة: إناء فخارى تغلى فيه القهوة اليمنية من قشر البن.
(٢١) دكة: مصطبة.
(٢٢) نظام: جنود الجيش النظامى.
(٢٣) برانى: ما يشبه جنود الاحتياط.
(٢٤) كاوش: العنبر المخصص لإقامة الجند.
(٢٥) البورزان: ضارب النفير.
(٢٦) الزامل: نشيد جماعى تقليدى.
(٢٧) الطيار: حافظة جلدية لرصاص البندقية تربط من الكتف إلى الخصر.

(٢٨) الصاغ سليم: جديدة لم تعبأ مرة ثانية.

(٢٩) المنظرة: غرفة فى أعلى البيت.

(٣٠) قبيلى: تطلق على الفلاح نسبة إلى القبيلة.

المداعة المنيير: النرجيلة الممتازة.

الفصل الثانى

مرت الأيام وبرغم عملى فى دار الشريفة حفصة فإننى شعرت بالإكتئاب والضجر والملل.

كنت مع صاحبى، الدويدار الحالى، كما يحلو للبعض تسميته، نقضى معاً بعضاً من أوقات ممتعة فى الساحة أو فى البوابة الرئيسة حسب العادة الصباحية مع العسكر والبورزان، وزِاملهم المعتاد.

ثم يضمنا مرقدنا المشترك فى غرفته، منهمكين نجتر همومنا اليومية، لكى نلتقى مجدداً فى دهاليز وسلالم وحجرات وساحة القصر وملحقاته. وفى المطبخ أيضاً بين أسرة النائب وحشمه وخدمه.. نلتقى فى غرفة النائب المنبطح دائماً على جنبه الأيسر منذ الصباح، ونهجع معاً فى غرفتنا فى النهاية.

حاولت ذات يوم، وقد ضقت ذرعاً بالحياة، أن أقنع صاحبي بالخروج إلى الميدان، إلى السوق، إلى الشارع، قلت له بتودد:

ـ أريد أن أتجول في المدينة هذااليوم ولو لساعة واحدة.

ـ لماذا؟

ـ يوم واحد بل ساعة واحدة، ألا تسمح أن ترافقني؟

ـ أشياء! لكني أريد فقط أن أشم الهواء.

ـ الهواء موجود!

ـ أريد أن نمشي معاً، أن نشم هواء آخر. نرى الناس. أن أجد أي شخص من بلدتي ممن يبيعون البصل والثوم والبطاطا في السوق، أسألهم عن حالة أسرتي!

ـ أبوك الهارب يلهب الدنيا بلسانه الطويل على الإمام في الجرائد، في عدن وحالة بلدتكم سيئة.

أطرقت. لم أكن أعرف أن لوالدي هذه الأهمية!

ـ أما أعمامك وأفراد أسرتك الآخرون ففي السجون .

أطرقت مرة أخرى. كنت أعتقد أنني الرهينة الوحيدة في السجن؟ ثم قال:

ـ لا يوجد في دياركم سوى النساء والأطفال الرضّع. و(السواري) و(العكفة) (بقاء) عليكم.

نظرت إليه ملياً. كلامه لا يأتى من خيال. فهو قد يلتقطه من أعز المقربين إلى النائب أو من النائب نفسه. لابد أنه قد سمع الكثير مما لم أسمعه ولم أعرفه ولم أكن أتوقعه!

قلت له برفق:

- أريد أن أطمئن عليهم.

صمت برهة. وأطرق إلى الأرض وقد خجل أو ندم من كلامه ثم قال:

- ألست مرتاحاً هنا؟

- نوعاً ما.

- لماذا تريد أكثر من هذا؟

- أريد أن أشمّ الهواء النقى. أن أشعر بأننى حرّ.

- أنت رهينة مولانا الإمام.

- ولكننى لست عبداً!

- أنت دويدار!

نظرت إليه وقد علتنى مسحة من الغضب:

- ولكنى لست «دويدار حالى».

* * *

ساد بيننا فتور لأيام قلائل. كنت أشعر أنه يكلمنى من موقعه هذا. فأنا بمعية الشريفة حفصة. أعلى منه مرتبة كما خيّل إلىّ. وأقوى نفوذاً. هذا إن شئت وجاريت رغبتها.

لا أدرى ما الذى دفعنا للتصالح بسرعة. فقد أخذ بيدى ذات يوم واتجه بى نحو البوابة الرئيسية خارجين إلى ميدان ترابى تتوسطه شجرة (طولقة) عملاقة يستظل تحتها جموع (المشارعين) والمواجعين وطالبى الحاجات من النائب. وبجوارها منصة حجرية البناء (بالقضاض) الصلب المصنوع من (التورة). ملساء. وخلفها تقبع عدة غرف تشرف على ممر واحد تظله شرفة بسقفها وأعمدتها الخشبية القديمة والمتآكلة. يطلق عليها الناس (المحكمة) أى مكان المواجهة الخاص بالنائب وكتبته وبعض الحكام الفقهاء فى الشرع والقضاء وموظفى المالية وبقية المستخدمين لأعماله المحدودة. وبين جموع الرعايا المواطنين أصحاب المظالم.

كل ذلك يطل على سائلة المدينة المنحدرة من الجبل والتى تجرف كل مخلفات هذا العالم الصغير من أوراق صفراء وأقمشة بالية تتكون من بقايا الثياب لبنات الجبل ونسائه.

اتجهت مع صاحبى إلى وسط المدينة. كان الجو مفعماً برائحة الوباء وأدخنة مطابخ المنازل.

الوجوه شاحبة تعلوها مسحة لون أصفر مقيت وباهت. والبطون منفوخة ليس شبعاً وإنما مرضاً. والأقدام عارية لزجة بالجروح والأوساخ.

جموع منهكة من المتسولين والمرضى والمجانين نصطدم بهم فى كل منعطف وفى كل زقاق وفى كل ساحة وشارع.

ما كان أجملها من مدينة بصباحها عندما نطل عليها من على أسوار قلعتها القاهرة معقل الرهائن والمدافع. حيث كنا نتدلى بأرجلنا من أعلى أسوارها ونشاهد المآذن والقباب البيضاء والمنازل المرصوصة داخل السور المنيع والهضاب والسهول والجبال الممدودة على مدى البصر.

لكنها الآن. ومن وسطها وفى أحشائها عرفتها على حقيقتها. إنها بؤرة للوباء المميت. مليئة بالمرضى والمجانين وأصحاب العاهات. والمعوقين والحكام الظالمين. إنها مدينة تعيسة وبائسة غاية البؤس. وكم تمر كل يوم جنائز الموتى من أبواب سورها تشيعها أصوات الأطفال مع معلميهم من الفقهاء وطالبى الخير والمغفرة.

لم أجد أحداً من بلدتى حيث لم يكن يوم السوق الأسبوعى المعتاد.. وعدنا. ودخلت من بوابة القصر وأنا أتنفس الصعداء. وقد آليت على نفسى بأن لا أخرج مرة أخرى. حتى ولو كان يوم السوق الأسبوعى. إلا إلى مكان آخر غير هذه المدينة.

ما كان أجملها من مدينة من عل وما أحقرها اليوم فى نظرى من مقبرة حية. وليتها كانت صامتة!

غداً هو أول يوم فى شهر رمضان. شعرت بذلك من خلال الإعداد الهائل والاهتمام المشترك لجميع سكان القصر من سادته إلى عساكره وخدمه وحشمه. حتى صاحبى. فقد ملأ غرفتنا بأشياء عجيبة بيضاء اللون كأنها مصنوعة من الفضة. قال لى بأنها (الأتاريك) وبدأ فى تنظيفها ثم ملأها بمادة القاز والسرت. وغيّر. كما أفهمنى. نبائلها

الحريرية الملونة التى تشبه (قوس علان) بأوانه. ثم شرع يجرب تجاربه عليها.

كم أدهشنى صفاء نورها اللبنى الناصع. وكم ضحك صاحبى منى وتلذذ فى مباغتتى بأشياء عجاب تذهلنى!

تذكرت ليالى رمضان فى بلدتى القابعة فى حضن جبلها الأشم! المغروسة بين عشرات القرى ومئات الحقول المدرجة وآلاف المزارعين. منهم أصحاب وأصدقاء لى منذ خلقت حتى أخذت عنوة إلى قلعة الرهائن. من المسجد إلى (الديوان). دوان عاقل القرية نسمر لنسمع آيات من القرآن الكريم. نحفظها على ضوء سراج زيتى ذى ذبائل قطنية حارقة. وإذا ما قرىء أى شىء فهو طبعاً كتاب المولد والمآتم والأفراح الممل!

وفى قلعة الرهائن كان رمضان بالنسبة إلى العساكر ورئيسهم والفقيه المعلم أيضاً رتيباً. وكذلك بالنسبة إلىّ وإلى زملائى الرهائن. فبعد الفرجة على (قوارح) مدافع رمضان التى تطلق من جوارنا كنا نتناول طعام الإفطار ثم نهجع ونستكين فترة ونخلد للنوم لنقوم باللعب فى الصباح أثناء نوم العساكر ورئيسهم والفقيه المعلم فى ساحات القلعة وأزقتها ومشارفها. وكنا نتلذذ بتناول حبات التين الشوكى المتدلية أشجاره إلى الهاوية والتى نقطف منها الثمار بحذر خوفاً من السقوط إلى أعماق سحيقة رهيبة.

فى دار النائب وملحقاته يختلف جو رمضان عما عهدته فى بلدتى وفى قلعة الرهائن. هنا تغمرنا أنوار بيضاء لبنية اللون وتعمّ كل غرفة بواسطة (الأتاريك) ذات اللون الفضى اللامع.

وديوان النائب مكتظ دائماً بالسمار، وأحاديث تقفال كل ليلة تلوكها الألسن عن الشعر والأدب والسياسة، ومنادمات لا تصل إلى درجة السماجةإلا فى بعض الأحيان.

أما نساء القصر وملحقاته، فلهن مريدات للسمر أيضاً، معظمهن من الجيران وبعض الأسر العريقة ذات المركز الاجتماعى المرموق. وفى بعض الليالى يفاجأن بنسوة من الأسرة المالكة، من قصور ولى العهد، اللواتى تطغى روائحهن العطرية على كل مخلفات الدخان المتصاعد من (المدائع) والمواقد.

حتى العساكر ومن ضمنهم (البورزان) المتصابى، لديهم مكان معتاد بجوار البوابة الرئيسية، قد هيأوه لهذا الشهر الكريم، ويدور فيه حوار سجال عن معارك مبالغ فيها ضد الأتراك والوهابيين والبريطانيين.

الشريفة حفصة تصوم طبعاً. هذا ما لمسته، وتنام بعد سهر طويل، وتستيقظ فى أوقات غير مرتبة، لكنها أوقات متأخرة جداً، وهذا ما أزعجنى، فمثلها لا يجوز لها هذا العبث بصحنها، والذى يؤثر على رونق جمالها وخصوصصا فى شهر رمضان والذى يقلب حياة الناس رأساً على عقب، وبالرغم من ذلك فما زال صوتها كما هو لم يتغير، ما زال يجذبنى إليها بشدة كأنه سحر محكم.

شغلتنى أوامر الشريفة حفصة طوال شهر رمضان بنقل رسائلها إلى سامر مداوم فى ديوان النائب، لم أعرفه من قبل وإن كنت قد لمحت صورته فى إحدى المناسبات الخاصة أو العامة.

كنت أسلمه رسالتها، وأنتظر. وكان فى بعض الأحيان يكتب بإطالة مما يضطرنى للاستجابة بتعمير (بوارى) (مدائع) بعض السامرين فى ديوان النائب. وهى ليست مهمتى. وقد يغمز لى بطرف فأتوجه نحوه ليسلمنى الجواب للشريفة حفصة. ذات ليلة دس فى يدى بريال فضى، كنت طوال عمرى لمم أتناوله بل ولم أعرف شكله من قبل. وكأنه قمر هبط علىّ فجأة من السماء.

وكنت أعود بالرسائل الجوابية إلى الشريفة حفصة، التى كانت تأمرنى معظم الأحيان بالبقاء معها حتى كانت تنتهى من قراءتها لتلك الردود.. كانت تمزق بعضها بغضب، ومن النادر أن تحتفظ ببعض منها. قلت لصاحبى ذات ليلة من ليالى رمضان ونحن نشعل (الأتاريك) استعداداً لسهرة القصر وملحقاته:

- لقد تعبت من نقل الرسائل والهدايا.

- وستتعب الشريفة حفصة. أيضاً.

- لماذا؟

- الرجل، هو شاعر الإمام وولى العهد الخاص، وهو وسيم ومرتاح ولديه من هذه الرسائل عشرات بل مئات. وتنهال عليه الهدايا الثمينة مما جعله يعيش كالإمام وولى عهده وأفضل منهما، وأفضل من النائب هذا أيضاً!

- وهل تعرف حفصة، أعنى الشريفة حفصة بهذا؟

- هى تعرف. لكن الكبرياء والتعالى يجعلانها تحرص على الصلة به.

- وهل يحبها؟

- لا يحبّ إلا نفسه.

- وهى؟

- .. تحلم، ولا تحب.

- تحلم بالشهرة وتحب التحدى.

لم تبخل علىّ الشريفة حفصة بشىء منحتنى الملابس النظيفة، فكونت المظهر اللائق بها وبى. ومع ذلك كنت أريد أكثر من ذلك، لكنها كانت تتعالى كومضة برق.

قلت لها يوماً وقد طفح الكيل:

- أرجو أن تعفينى من حمل هذه الرسائل.

- لماذا؟ـ لا فائدة ترجى.

- كيف تتجرأ على قول مثل هذا الكلام؟!

- هى الحقيقة التى أشاهدها. فلديه ما يشغله عنك.

- إخرس.. يا.

وهوت بيدها الناعمة الجميلة المخضبة بالحناء والمزينة بالأساور الذهبية على خدى بلطمة تقبلتها بثبات وقد تمالكت أعصابى وقلت:

- أنت تحلمين ولا تحبين.

- إخرس.

وهرعت الدرجات مسرعاً تاركاً صوتها يعلو بالشتائم العصبية المتوترة.

* * *

قادنى أحد العساكر إلى البوابة الرئيسية. تقرفصت ومددت رجلى ليوضع حولها قيد حديدى، طرقه أحد العساكر حتى زحكم دائرته. ومشيت نحو رغفتنا حيث نصحنى صاحبى بوضع بعض أقمشة بالية على ساقيّ لكى لا يحتك القيد بهما ويحدث جروحاً، وإزعاجاً أيضاً!.

لم أكلمه تلك الليلة حفظاً لماء الوجه. كان متألماً كما بدا لى من خلال تقاسيم وجهه، أكد لى أن قيدى كان عن إصرار من الشريفة حفصة. نفذه لنائب.

السجين المقيد مرتاح أكثر ممن هم طلقاء بالقيود فى هذه المدينة، بل وربما فى البلاد كلها! فلا مشاغل ولا هموم يعانون منها، فعذرهم واضح بأنهم سجناء مقيدون لا حول لهم ولا قوة.

كنت أستيقظ مبكراً خلافاً للعادة وأتجه بقيدى إلى (دكة) العسكر فى البوابة الرئيسية أتناول معهم وجبة الإفطار العادية المكونة من (الكدم والبرعى)[1] إن وجد أو ما حصل من (سحاوق)[2]. وأتجاذب معهم أطراف الحديث المعتاد.

ومع قلة حديثى مع صاحبى، فقد شعرت بأن هنالك حركة غير عادية تجرى فى القصر وملحقاته وفى تصرفات صاحبى العجلى الفرحة، فسألته عن ذلك فقال بفرح:

- سيصل اليوم ابن النائب من الخارج.

- ولماذا كل هذه الحركة والدربكة اللافتة للنظر! ألديه حاشية كبيرة ستصل معه؟

- ستصل معه سيارته الصغيرة فقط! وستحملها الجمال إلى مشارف المدينة! وسيقوم الآن المهندس الإيطالى بتركيبها فور وصولها ألا ترى أنه حديث يستحق كل هذه الحركة والدربكة اللافتة لنظرك؟!

- شيء عادى أن يعود ابن النائب من الخارج إلى موطنه!

- لا أقصد ذلك. أقصد وصول سيارته معه، وصغيرة جداً. ألم تعرف ما هى السيارة؟

* * *

فتحت البوابة الرئيسية بأكملها، واشرأبت الأعناق من كل نافذة داخل القصر وخارجه، وكثر الهرج والمرج. وتجمعت جحافل من (الرعية) من شركاء وأجراء النائب فى المدينة والأرياف، وحشد غفير من الناس من رجال ونساء وأطفال فى ساحة المدينة المطل عليها القصر وملحقاته.

كان العسكر ينظمونهم حسب المزاج وبطرق عشوائية، فكم من خبط وضرب ولكم لخلق الله!

خرجت بقيدى الحديدى إلى الفسقية التى تتوسط ساحة القصر وملحقاته. أتعشم أن أشاهد صاحبى وهو بجوار النائب وابنه الواصل من الخارج راكباً بجوارهما على تلك السيارة الصغيرة العجيبة.

لملمت قيدى وانحنيت على ركبتىّ محتضناً إياهما مع القيد، كان مكانى يتيح لى فرصة للمشاهدة أحسن من أىّ مكان آخر.

لاأدرى كيف راود ذهنى قسم عظيم بأن لا أعود إلى دار الشريفة حفصة مهما طال القيد، وسمعت من خلفى صوتها فجأة وهى تزأر:

ـ طليق، وفى الساحة؟!

ـ لم ألتفت ولم أجب.

واستوت إلىّ مواجهة وقد حجبت عنى رؤية البوابة الرئيسية المكتظة بخلق كثيرين منتظرين مثلى الفرجة على هذا الحدث القادم.

وبالرغم من أنها فى ساحة القصر وملحقاته إلاّ أنها تلتحف شرشفها الأأسود الذى لا يظهر منه سوى عينيها البراقتين المكحولتين بالإثمد وأنفها البارز كحدّ السيف من خلال اللثام. ومع ذلك التوتر، فقد مدت يدها المزينة بالذهب والمصبوغة بالخضاب الذى أظهر ذلك البياض المفعم بالحمرة والذى يتجلى على أناملها وظهر كفيها وذراعيها لتمسك بى مرة أخرى وبقوة لنتواجه.

أصلحت من وضعى بعد هذا العنف، وحاولت الوقوف، لكنها منعتنى بحركة آمرة قوية من يدها ومن خلال صوتها الأجش المهاب.

تأملتنى ملياً وبرفق وأنا مستسلم، نسيت خلالها الحشود الغفيرة وهذاالحدث، وغمرتنى مشاعر فياضة لم أحس بها من قبل.

جلست بجوارى على حافة الفسقية وهى تصنتع عجزها الفاتن لتصلح جلستها حتى شعرت بأنها تزيحنى فعلاً من مكانى لكى أرتمى على الأرض، فأصلحت من مجلسى مرة أخرى خاشعاً ومتيحاً لها أخذ

راحتها، وتململت قليلاً ثم نظرت إلىّ قائلة:

- لماذا تؤذيني. رغم إحساني وعطفي عليك؟!

أحسست أنها تخاطبني كطفل يتيم وصغير، وجاهل. فقلت:

- لم يحدث مني شيء يسوؤك.

- كنت جلفاً وقاسياً وبلا ذوق معي (كقبيلي بسبلة).

- قد أكون قبلياً، ولكني بلا سبلة.

وضربت برجلها المتدلية عرض الفسقية المفضضة بالنورة ثم وضعت يدها على عجزها وقالت:

- لقد آلمتني.

- بماذا لا سمح الله؟!

- وثقت فيك.

- لم أخن تلك الثقة!

- بل تجاوزت!

- حاولت النصيحة فقط!

واستدارت شبه غاضبة قائلة:

- لست وصياً عليّ.

- أعرف ذلك، فأنا مجرد (دويدار)!

- بالضبط، والدويدار يعرف كيف يؤدي عمله.

ـ كالدويدار حالى؟

ـ أنت (حالى) قبل أن تكون دويداراً!

طرق مسمعى قولها ذلك وبصوتها الرخو المبحوح الذى يميزها عن غيرها من نساء القصر وملحقاته.. حتى صوتها هذا كان له دائماً وقع سحرى فى أذنى. وقع محبب عشقته وظل يطرق مسمعى ليل نهار، أكنت نائماً أم يقظاً.

وعلا هرج وارتفع صياح عرفت من خلاله أن موكب النائب وابنه بسيارته قد أزف، وعلا صوت بوق (البورزان) بالرموز التركية التى تعلن مقدم النائب. وانتصبت الشريفة قائمة ثم نظرت إلىّ وأسدلت نقاب شرشفها على وجهها ثم وثبت كمهرة بكر نحو دارها دون أن تأبه بالموكب أو تعيره اهتماماً!

تعالت الأصوات، وسمعت أزيز محرك السيارة وصوت بوقها لأول مرة مختلطاً بصوت بوق البورزان. وقفت وقد دخل الموكب يتقدمه البورزان ببوقه الصائح تليه مجموعة من الحرس النظام والبرانى والحشم والخدم. ودخلت السيارة يقودها ابن النائب العائد من الخارج منفوخاً كضفدعة، جاحظ العينين تكاد بسمته المصطنعة أن تضيع بين أوداجه المنتفخة! وجلس بجواره والده النائب وقد لبس حسن ما لديه من لباس، ووقف خلفهما صاحبى يحيى بفرح ويمازح الناس والسعادة تغمره. صفقت له وناديته باسمه، بل وهتفت بحياته.. لا أدرى كيف فعلت ذلك!

وأقفل العسكر البوابة بعد أن طردوا بقسوة أطفال المدينة المندفعين لرؤية السيارة القادمة من عالم المجهول.

ونزل النائب بعد أن أوقف ابنه الضفدع أزيز محركها ووثب صاحبى كغزال وهو يبتسم عندما رآنى أصفق له.

واطمن ابن السيارة على سيارته فى اصطبل الخيول التى خذها الرمام.

وكانت ليلة سمر، احتفتى الكل فيها بابن النائب. وسمرت قليلاً عند العسكر، استمتعت برقصاتهم الشعبية على أنغام المزمار والطبل، كانوا يشاركون بالاحتفال بوصول ابن النائب ويتوقعون فى الصباح أن يكرمهم النائب بأوامر نافعة على الرعية لتأخرهم عن تسديد الزكاة وملحقاتها. وبات كل عسكرى منهم يحلم بأمر يأخذه على رعية من منطقة يفضلها ويعرف مردود ذلك الأمر!

* * *

فى الصباح الباكر اقتادنى أحد العساكر إلى حجر فك القيود. لم يبق غيره من العسكر، فقد تفرقوا ضيوفاً غير مرغوب فيهم على الرعية طبقاً للأوامر. حتى البورزان ذهب هذه المرة وكان أمره على شيخ ظالم فى واد خصب ليحصل منه على مصروف سنة كاملة.

أمرنى العسكرى بالجلوس لفك القيد الحديدى، حاولت أن أسأل ولم يجب. فقد كان مصاباً بسوء الحظ لعدم ذهابه كزملائه.. وأقبل صاحبى مبتسماً كعادته وقال لى:

- لقد أمرت الشريفة حفصة بفك قيدك!

- لكننى لمَ أطلب منها؟

- هى أمرت.

- لن أنفذ الأمر؟

- العسكرى سيقوم بتنفيذه!

- سأقاوم.

- سيكلفك ذلك الكثير!

- لا يهم.

وأقنعت نفسى وصممت على ما اقتنعت به، وحاول العسكرى إخضاعى بالوة ووضعنى على الأرض. لكننى قاومت، ونشبت بينى وبينه معركة استخدمت فيها كل ما استطعت من وسائل، بالأظافر وبرمى الحصى على عيونه وبالعضّ بالأسنان، لكنه كان مستثاراً أكثر منى لعدم خروجه مع زملائه فصبّ غضبه علىّ وتحملت منه ركلات ولطمات صلفة. ومن عسكرى غاضب لعدم خروجه بأمر على رعوى ولبقائه الوحيد بلا أمر! وتدخل صاحبى فوراً وكان تدخله لصالحى بعد أن تجمع بعض الخدم والخادمات للمشاركة فى فك ذلك الاشتباك الذى لم أعرف له سبباً سوى أننى حرنت بعناد لا مبرر له!

أخذنى صاحبى بقيدى إلى غرفته، وحاول قدر استطاعته مسح الدماء ولأم الجروح الخفيفة وتهدئة نفسيتى المثارة.

* * *

ظل القوم فرحين بمقدم ابن النائب بسيارته الوحيدة، ولم أبرح غرفتى. وقام صاحبى بتوفير كل شىء لى. أحببته من كل قلبى، وتساءلت لماذا كل هذا التعب والعناء المبذول منه؟

ويرغم ما حدث فلم تبارح الشريفة حفصة مخيلتى مطلقاً بكل جسمها وصوتها ومفاتنها العديدة. كنت أطرد صورتها من خيالى بقوة أثناء نومى أو يقظتى، دون جدوى! وكنت أحاول أن أنساها بتذكرى لأبى وأمى وإخوتى وأسرتى عسى أن تقوم صورهم بطرد صورتها. ولكن دون جدوى، أصبحت جزءاً من الغرفة. من حياتى اليومية المعاشة، لا حركة ولا سكينة فيها إلا وهى موجودة أمامى، حتى لقاء صاحبى مع نساء القصر وشذوذهن معه لم أعد أكترث ولا أهتم به.

لكننى سمعت هذه الليلة، وهى ليلة قريبة من تلك الأحداث، سمعت صوتاً ينادى على صاحبى، صوتاً ليس من أصوات صديقاته عانسات القصر، إنه صوت رخو مبحوح اقشعر له جسمى، فتدثرت بفراشى وقد أحكمت كتم أنفاسى فيه!

- يا (عبادى).. يا دويدار(عبادى).

وقام صاحبى مذعوراً كأنه مثلى لم يتوقع حدوث ذلك، وقال:

- أريد صاحبك.

- إنه نائم.

- أيقظه.

- تفضلى.

- قلت لك أيقظه.

واتجه نحوى بوجل وهو يوقظنى:

- قم. الشريفة حفصة تريدك.

- لن أستيقظ.

- إنها تريدك!

ولكزنى برأس أصابعه.. حاولت قدر المستطاع أن أوهمها وأوهمه بعدم اهتمامى بها، ولكننى فشلت فنهضت مسرعاً كأننى بلا شعور، وجذبتنى من ذراعى وانزلقت معها سلالم القصر. كنت أثب خلفها بالقيد الحديدى دون أن أنبس بأى كلمة، كان القيد يحدث ضجيجاً مزعجاً، قالت:

- كزأك لم تسجن بقيد من قبل؟!

لم أجب.

واستمرت قائلة:

-.. وإلاّ لتعلمت كيف تحافظ على ساقيك من القيد بالخرق البالية من القماش التى تمنع هذا الصرير المزعج أيضاً!

لم أجب، بل تعمدت مزيداً من أحداث صرير القيد الحديدى المزعج.

وفى الساحة حاولت عندما وقفنا أن أسألها، أسألها عن سبب حبسى وقيدى، أسألها عن سبب حبى لها، أسألها عن سبب تعلقها واهتمامها بى ومغامرتها لأخذى بقيدى إلى هذه الساحة؟

لكنى لم أجرؤ، بل تبعتها بعد ذلك فى خطوتها ككلب مطيع لصاحبه، أو ربما ككلب ضال.

أجلستنى بجوارها على الأرض وهى تقول:

- لماذا لم تقبل فكَّ قيدك؟

- لأنه أراحنى من أداء مهمات لا أحب أداءها!

أوحت إلىّ بأنها لم تفهم مغزى قولى فقالت:

- .. هل أنت مريض؟

سؤال مفاجىء، فأنا بخير ولا أدرى ماذا تقصد.

فقلت متحذلقاً:

- .. ربما!

- وكسول؟

- لا أعتقد ذلك.

- فخور بأنك كنت رهينة؟!

- وما زلت رهينة!

- رهينة من؟

لم أجب. مسنّى إحساس من كرامة بعدم الخضوع. لأكن رهينة، أو دويداراً، وربما صرت فى هذه الفترة خادماً، وخادماً للشريفة حفصة. لا يهم هذا عندى ولكن الأهم من ذلك أن لا أصبح دويداراً حالياً، وهذا ما كان يزعجنى، شعرت أنها كانت تتوقع أن أجيب بأننى رهينتها، دويدارها الحالى!

وشعرت أيضاً بأنها تقدر موقفى بعدم محاولتها جرح مشاعرى مرة

أخرى، فاتجهت بى إلى البوابة الرئيسية للقصر. مقر العسكر والبورزان، ونادت بصوتها الآمر فتواجد بعضهم بخضوع وخشوع كان معظمهم قد عادم من مهامه فأمرتهم بصوتها الملبى دائماً. ولم أشعر إلا بمجموعة منهم تتطرحنى أرضاً وتفك قيدى الحديدى برفق بواسطة القضيبين الحديدين المرتكزين على حجر متآكل.

وعادت بى إلى الساحة قائلة:

- هل تريد العودة إلى صاحبك أم إلى دارى؟

كنت أعرف أن المقام فى دارها له مزايا خاصة، مريحة ومغرية، ولكننى فضلت العودة إلى غرفة صاحبى برغم تأففى لما يمارسه من شذوذ غير لائق مع معظم نساء القصر أعتبره فى نظرى من المحرمات.

واتخذت قرارى بالعودة إلى غرفة صاحبى مع حفظ ماء الوجه والإيهام بالكبرياء وكرامة النفس تقبلته الشريفة حفصة بروح العارفة الدارسة للنفسية المراهقة!

بهذه الصورة أطلقتنى الشريفة حفصة من قيدى، وجعلتنى أختار بحرية تامة غرفة صاحبى الدويدار الحالى، وهى بالتأكيد تعرف أننى سأقوم بعملى لديها بقناعة تامة.

لم تحاول إعادة الكرّة معى فى إرسال خطاباتها إلى شاعر الإمام وولى عهده، فقد استعاضت بصاحبى، وبرغم معرفتى بذلك لم ألمح لها!

* * *

كان صاحبى يقوم بفرك رجلىّ النائب المبطوح أمام النافذة المطلة

على ساحة قصره وملحقاته. كما هى عادةالنواب والأمراء والسيوف، الذين لم أعرف أحداً منهم حتى الآن. كنت واقفاً بجانب صاحبى والنائب يسحب نفساً من المداعة كالعادة، وفنجان القهوة إمامه فقد برد!

وفجأة دخل علينا شاعر الإمام الوسيم، فنهض النائب بكل ثقل جسمه.. وانتفض صاحبى لهذه المباغتة رافعاً يده عن رجلى النائب وانسحبت مع صاحبى إلى مؤخرة المنظرة.

لم يكن من المتوقع وصول شاعر الإمام ودخوله المفاجىء إلى المنظرة الخاصة بالنائب التى ليس بمقدور أى شخص دخولها إلا إذا كان رسولاً خاصاً من الإمام أو ولى عهده السيف وقادماً لأمر مهم، أو شخصاً مهماً من أسرة النائب المقربين جداً!

لم أستوعب بوضوح مع صاحبى كل ما دار من حديث متبادل بين النائب والشاعر، حيث بدأ الحديث بالمجاملات المملة من تحيات وسؤال عن الأحوال الخاصة والعامة وابتسامات كلها زور وبهتان ونفاق، كان النائب طبيعياً ولو أنه قد أحس بأن الشاعر مكلف من ولى العهد السيف بشىء مهم، وكل ما سمعت مع صاحبى وكأننا جزء من أثاث المنظرة، مجرد حوار يدور حول سيارة ابن النائب وعن موكب دخولها المدنية التى لم تعهده من قبل وقد عبّر الشاعر عن استياء ولى العهد السيف لذلك الموكب وتلك المظاهر البراقة التى رافقت الموكب.

كان النائب برغم ثخن جسمه، وبرغم شفتيه المتدليتين إلى أسفل ذكياً بلا شك وإلا لما أصبح نائباً للإمام وعاملاً على هذه المدينة المهمة وملحقاتها من أرياف ونواح وثغور.

وتصنع النائب الاستغراب لهذا الحديث الذى أثاره الشاعر ثم ابتسم

متعجباً، وقال بعد برهة تفكير أوحى بها إلى الشاعر:

ـ السيارة هى أصلاً هدية لمولانا ولى العهد حفظه الله من ولدى ومنى، ولها قصة طويلة، عندما طلبت منه شراءها من الخارج لمولانا حفظه الله، وقد تمكن من شرائها وإيصالها بنفسه إلى الميناء بجهد يشكر عليه، وقد حبّذ إيصالها بنفسه إلى المدينة أيضاً، وقد استقبلته وكان ما كان! على كل حال هو مصر على إيصالها بنفسه إلى مولانا بعد عناء السفر ويوصلها فى الصباح الباكر ويقودها بنفسه، وتعرف سيدى انشغال مولانا حفظه الله هذه الأيام بقضية هؤلاء الذين يدعون (الأحرار) اليمنيين فى (عدن)، وهذا ما أخرنى عنه إخبار مولانا حفظه الله بهذه الهدية!

ولم يتح النائب للشاعر أن يقاطعه فاستطرد قائلا:

ـ وحاشى الله أن تكون السيارة لى أو لولدى، فنحن سنظل على العهد باقين مدى الحياة، وسنركب البغال والحمير دائماً إلى مقام مولانا حفظه الله.

وما إن توقف النائب برهة حتى حاول الشاعر أن يتكلم ولكن النائب لم يمهله بل واصل قائلاً:

ـ أما تجمهر الناس حول منزلى فهو لمجرد رؤية هذه السيارة العجيبة وليس لرؤيتى أو لرؤية ابنى، وأنتم تعرفون سيدى أنهم من العوام، فلا سيد فيهم ولا قاض، ولا نقيب، ولا حتى مجرد رعوى مزراع، كلهم من أبناء الشارع والحوارى فى المدينة.

وبالكاد سنحت فرصة للشاعر فقال:

ـ أعرف ذلك، طابت أوقاتكم، وسأقوم بنقل هذا إلى مولانا حفظه الله، ثقوا من ذلك.

ـ ولماذا هذه العجلة، أمكث معنا ولو قليلاً!

ـ أفضل الذهاب، فمولانا على أحرّ من الجمر.

وتوجه النائب نحو خزانة فى عرض الحائط وأخرج منها بعض أشياء لمعت بعضها فى عيوننا ببريق لون الذهب والفضة، وقدمها إلى يد الشاعر الذى حاول أن يظهر امتنانه بعدم قبولها، لكنه فى النهاية حفظها فى مكان أمين فى ملابسه!

ونظر إلينا عند خروجه وابتسم، وسلم لصاحبى رسالة خلسة وغمز له بعينه اليسرى.

* * *

أخذت مع صاحبى نتجاذب أطراف الحديث حول زيارة الشاعر للنائب، ومع ذلك كان ألمى شديداً لانشغال الشريفة حفصة بهذا الشاعر المدعى.

الرسالة ما زالت مع صاحبى، وكم هممت أن أعرف ما فيها، فكرت أن أحتال على صاحبى لأول مرة فى حياتى وأفتح الرسالة فى غفلة منه.

وخرج ليقضى بعض أعماله المعتادة والمتأخرة، وكان رداؤه معلقاً فى مكانه المعتاد والرسالة بداخله بالتأكيد، وليس بينى وبين أن أعرف

ما بداخلها إلا أن آخذها وأقرأها بسرعة وأعيدها إلى مكانها كما كانت، أريد أن أعفر ماذا يقول لها من دجل ونفاق وابتزاز لعواطفها، هذا ما تخيلته وأنا أحاول أن أقدم على أخذ الرسالة، لكنى تراجعت بكبرياء انتابنى فأزة وأقنعت نفسى بعدم الاهتمام بالرسالة وبالشريفة حفصة.

وعاد صاحبى وأنا فى حالة معاناة وتأمل ومراجعة مع النفس، وبدأ يعلو سعاله المعتاد المقرف الذى لا يكف عنه إلا بعد غيبوبة، كنت قلقاً منذ فترة على صحته ومنذ بدأت هذه الظاهرة تلم به، ومع ذلك ما زال يشعل سيجارة ملفوفة إثر أخرى ويسعل مجدداً حتى يفقد وعيه.

* * *

استيقظت مبكراً لأول مرة رغم سهادى، وتركت صاحبى يعوض نومه واتجهت إلى دار الشريفة حفصة.

كان يوماً كئيباً على نفسى بالرغم من شعور روحى يدفعنى لرؤيتها، لم يعد يهمنى أى شىء، ما دمت أعمل فى معيتها، وهذا شىء مفروض علىّ عليه كذا عللت لنفسى سرعة اندفاعى إلى منزلها، ومع علمى بأن الوقت كان مبكراً وبأنها ما تزال نائمة فقد جلست أمام باب منظرتها انتظر.

وفجأة فتحت الباب وكادت أن ترتطم بى، ثم قالت:

- يا صباح الخير، بالرهينة الحالى!

وانتفضت واقفاً ولم أستطع الإجابة.

كانت مرسلة الشعر، ممتلئة الوجه، مدعوجة العينين، كم يعطيها النوم راحة لجسمها المتململ بالحيوية.. وصوتها الرخو المشوب بشيء من الفحيح.. وقالت:

ـ أين صاحبك؟

ـ تركته نائماً.

عبرّت عن استيائها لعدم حضوره بحركة من رأسها، بينما قلت مستفسراً:

ـ هل تريدين منه شيئاً؟

وبعد تلكؤ منها كأنها لم تكن تريد أن أعرف قالت بضجر:

ـ اذهب وخذ منه رسالة، إئت بها إلىّ سريعاً.

وما أن نزلت بعض درجات القصر حتى كان صاحبى قد وصل وهو يصيح لائماً:

ـ ألم أقل لك أن توقظنى مبكراً؟!

ـ لم تقل لى فأنت دائماً أول من يستيقظ فى هذا القصر.

ـ لا أدرى ما الذى ألم بى هذه الليلة.

ـ سعالك الشديد والحاد، الذى لا تريد أن تعالجه.

ـ ألم تسأل عنى الشريفة حفصة.

ـ سألت عنك، وعن الرسالة!

لم يجب.. وعدت معه وقد خفت حدة غضب الاريفة حفصة والتى سمعت بعض حوارنا كما خُيّل إلىّ.. وقدم لها الراسلة، أخذتها بلهفة تألمت لها، ودخلت إلى منظرتها وقد تركت الباب مفتوحاً حيث أتاحت لى أن أتابع حركاتها وهى تقرأ الرسالة، وتتأملت بدقة، وفجأة مزقت الرسالة ورمتها من النافذة!

ابتسمت فرحاً لهذه النتيجة التى لم أكن أتوقعها، واستدارت الشريفة حفصة نحو باب المنظرة، نحونا، ولتصرفنا إلى أعمال لم نكن نتوقعها أو من المطلوب منا تنفيذها!

ظللت مبتسماً فنظرت إلىّ باستفسار، لكننى لم أجب، بل توجهت مع صاحبى نهبط درجات القصر لتنفبذ أوامرها.

انتهت أزمة السيارة التى وصل بها ابن النائب، فقد سلمت إلى قصر ولى العهد، أخذها ابن النائب بنفسه وكان إلى جواره الشاعر الوسيم.

وطاب المقام لابن النائب العائد من دراسته فى مصر، كان لا يخلو يوماً فهو إما أن يوكن مدعواً لغداء أو مقيل أو عشاء وسمر فى بيوت الأسر المعروفة فى المدينة أو الأقرباء وبعض الموظفين المهمين.

وذات يوم أخبرتنا الشريفة حفصة بأنها قد دعت ابن أخيها الضفدع لتناول العشاء مع أصدقائه فى دارها، وقد سألت صاحبى مستفسراً لماذا لا تدعوه لتناول الغداء والمقيل مع أصدقائه.. فضحك صاحبى ولم يجبنى!

وكان يوماً شاقاً علينا، كم قمت فيه مع صاحبى بمهمات عديدة لا حصر لها حتى أننا شاركنا الخادمات بتنظيف الأوانى النحاسية من

زهريات وشمعدانات وأباريق و(معاشر)[٣] ومنافل، وربتنا معاً منظرة الطعام وما يلزمها من كل شيء، كانت الشريفة حفصة مزهوة بدارها ومناظرها المفروشة بأفخر أنواع السجاد والمطرزة بأحسن الطنافس النحاسية والفضية أيضاً، وبعد أذان العشاء كلفتنى وحدى بنقل عدة أطباق من اللوز والجوز مفرقة على طول المنظرة مع صحون وكؤوس من زجاج فارغة وعدة ثلاجات صغيرة لحفظ الماء بارداً!

أخذت الشريفة حفصة بيدى إلى مكان صغير عرفت أنه (الخلوة) لم أدخله من قبل، وأخذت من خزينة فى الجدار بعض قوارير مملوءة بسوائل ملونة، بعضها أبيض اللون وله رائحة عطرية، ثم أمرتنى بأن أضعها فى المنظرة موزعة بجوار الكؤوس الفارغة وصحون اللوز والجوز.

قمت بالمهمة على أحسن وجه ونفذتها بدقة متناهية فى الترتيب والذوق لا أدرى كيف أجدتها، وزدت فتفانيت أكثر فى وضع كل شيء فى مكانه اللائق والطبيعى، كأننى قد مارست هذا العمل من قبل.

نظرت إلىّ الشريفة حفصة من باب المنظرة وأنا أرتب كل ذلك فنادتنى بصوت حنون هرعت لسماعه نحوها.

تسمرت أمام باب المنظِرة حيث لم أستطع الخرج لأنها كانت مسندة ذراعيها إلى الباب، وجلْتُ، وشعرت بأنى أكاد أأصطدم بوجهها الباهى العريض كوجه القمر، واعترانى خوف دق له قلبى ونشف له ريقى، أمرتنى بصوتها المرح المشوب بحة محببة إلى قلبى وكل حواسى بالاقتراب منها، فاقتربت منها، ثم أمرتنى مرة أخرى بالاقتراب منها أكثر فاقتربت.

كادت أنفاسها تلسع وجهي، فأمرتني أيضاً بالاقتراب أكثر إلى درجة لم يحدث لي من قبل ولا مع والدتي، فاقتربت.

وأمسكت بيدها برأسي، و.. قبّلتني في شفتي قبلة اعتصرت فيها رحيق عسل ملكة نحل بكر.

دار رأسي، وأحسست بأن الكون كله من حولي يدور، وقالت وهي تبرر عملها هذا:

- لم أكن أتوقع أن تكون بهذه الدقة من النظام وحسن الذوق والمعرفة.

شيء ما حدث كالبرق، كنت مرتبكاً ومتلعثماً قلت:

- حسن ظنك.

لم تجب لكنها هرعت مسرعة بجسمها الريان نحو المطبخ، ونبهني صاحبي وقد قدم قائلاً:

- ماذا بك كالمجنون؟!

- لا شيء!

- هيا إلى عملك، فالضيوف قادمون.

كان باستطاعتي أن أخدم ألف شخص، أن أعدّ ألف وليمة، أن أقلب الكون رأساً على عقب وبنظام بديع.

وتوافد المدعوون، كان أولهم ابن النائب (الضفدع) بضحكاته المقرقرة كصوت (المداعة) أو صوت قلّة يسكب منها الماء، وقد حضر

معه جماعة من أصدقائه وأقربائه المدعوين ومن ضمنهم الشاعر الذى دخل وعلى فمه ابتساماته وتحياته المزورة والملحة وضحكاته المنافقة الدجالة، مع كل تصرفاته التى كلها بهتان وزور.

وأصبت بحالة غمّ وضجر لحظة مقدمه، لكن كل ذلك زال بعد فترة، أو هكذا أقنعت نفسى به بعد تذكر ما حدث لى منها قبل قدومهم! وجلس الضيوف وقد خلع معظمهم ثيابه التقليدية والعمائم البيضاء، وقفت مع صاحبى فى حجرة مدخل المنظرة عند أحذيتهم المنقلب بعضها والتى قام صاحبى بإعادتها إلى وضعها الطبيعى، وليس ذلك حرصاً منه على سلامة الأحذية وإنما لتشاؤم سائد من وضع الأحذية مقلوبة بأنه يوم نحس أو أنه يسىء إلى السماء، كنت أعرف ذلك فى قريتى فى أى مكان مقبل، أو أى مكان آخر عادىّ ولو باب المسجد.

ظلّ نظرى مصوباً نحو ذلك الشاعر الوسيم المدعى، سمعته من قبل يتلعلع ويجلجل بقصيدة مديح فى ديوان النائب، حتى فى شهر رمضان سمعته أيضاً فى أمسيات النائب يلقى بقصائده المشيدة بالإمام وولى عهده السيف، والنائب أيضاً.

كان له شكل مهيب، ذو سمرة مليحة، وقوام ممتلىء برشاقة، وصوتت جهورى، وضحكات مجلجلة عذبة مغرية، يطلقها افتعالاً ليسحر بها عقول النساء والرجال أيضاً.

هزتنى الشريفة حفصة من منكبى فجأة وهى تقول:

ـ لماذا أنت شارد؟

فوجئت، ولم أستطع النظر إليها، وأدركت أثناء ذلك بأن صاحبى ليس بجوارى لأستأنس به وأستمد منه شجاعتى، فقد ذهب كما يبدو إلى مهمة دون أن أشعر به، وقلت متلعثماً:

- حاضر.

هذا كل مل قدرت على نطاقه مجيباً على تساؤلها وقد اعتبرته رداً وافياً لكنها قالت لىَ آمرة:

- خذ هذه الورقة، وأعطها للشاعر الجالس هناك.

أخفيت مشاعرى المصدومة فجأة بأمرها، وأخذت الورقة منها وعلى مضض.

انتابنى إحساس أكيد بأن قبلتها التى عصرتنى بها عصراً ما هى إلا مجرد رشوة للقيام بهذه المهمة التى كنت قد امتنعت عن الاستمرار فى أدائها من قبل وأدى ذلك الامتناع إلى حبسى وقيدى.

إذن قد أخلت الشريفة حفصة بالشرط المهمّ الذى اتفقنا عليه بعد ذلك وداست على مشاعرى، واستدرجتنى بخدعة كان يمكن أن تمرّ على أتفع عاشق على مرّ التاريخ.

لا أدرى كيف تذكرت مقيل والدى وما كان يحكيه عن عشق عمر بن أبى ربيعة للشريفة سكينة بنت الحسين!

لكن ما أقدمت عليه الشريفة حفصة من عمل جرحنى، لذلك صممت فى قرارة نفسى أن أريها بأننى لست مهتماً بها ولا بمواقفها هذه المشينة، وبأننى من قوم لم تمرغ أنوفهم بالتراب!

تملكنى شعور بالأنفة والكبرياء، ولكنها أنفة مكسورة وكبرياء مجروحة مذلة.. ولكن لابد من إظهار ذلك، قلت:

- مرحباً سيدتى، وسآخذ منه الجواب..

- أحسنت، يا رهينتى الحالى.

وحاولت الإمساك برأسى بغية تقبيلى، لكننى نفرت منها سريعاً إلى داخل المنظرة ولم أتح لها فرصة لعمل ذلك.

تمالكت نفسى، وقد دخلت عليهم فجأة بحركة لافتة للنظر حيث نظروا إلىّ باستغراب، وقفت فترة مناسبة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من حوار وضحك،دنوت من الشاعر، وجلست بجواره، نعم، جلست بجواره والجميع مشغولون بالحديث عن حياة الناس فى الخارج، فى مصر بالذات، يروى ذكرياتها ابن النائب (الضفدع) مع نوادر عديدة كانوا يضحكون لذكرها.

وتنبه الشاعر لوجودى بجانبه فنظر إلىّ بعينيه الجاحظتين ثم هوى بيده على فخذى، وفركه بطريقة لم تحدث لى من قبل وقال بصوته المعروف بالزور والبهتان:

- أهلاً وسهلاً، يا مرحباً بك، خطوة عزيزة!

أبعدت يده عن فخذى بشدة فاتجه بها إلى كأس أمامه وقدمها لى بتواضع قائلاً:

- إشرب، أهلاً وسهلاً بك يا مرحباً، خطوة عزيزة!

عطست إثر اشتمامي لرائحة عفنة مصدرها الكأس التي قدمها لي الشاعر، وطرحت الكأس بجانبي، وهززت كتفه مرة أخرى محاولاً التخلص من المهمة المنوطة بي كرهاً، لكنه رغم ذلك وضع يده مرة أخرى على فخذي قبل أن يلتفت إليّ قائلاً:

- أهلاً بك.. يا مرحباً!

قذفت بيده بعيداً ثم ناولته الرسالة.. فأخذها، ثم ضحك بعد أن قرأ منها بضعة أسطر، هي بدايتها وخاتمتها فقط، وهوى بيده مرة أخرى على فخذي بحركة عجيبة لم أعهدها في حياتي من قبل.

فكرت هذه المرة بأن أقنع نفسي بترك يده على فخذي، أريد أن أعرف مراده، ماذا يهدف في النهاية، وهي تجربة لابد أن أعرف غرضها، فأخذت أنامله في فخذي ما شاء لها المراد في حدود لم تعد معقولة من الأدب ولو أنه لم يعد هنالك أدب ما، ولكني شعرت بأنه يسعى بأنامله وقد اطمأن لرضوخي إلى منطقة حساسة، إلى شيء لم أبحه للشريفة حفصة نفسها ولا لمخلوق آخر حتى الان!

كان مصمماً على نقل يده من فخذي إلى مكان آخر، يريد أن يفرك ويتلذذ برغبة جنونية.. استطعت أن أوقفه عند حده، وشعر زملاؤه في المنظرة بذلك فابتسموا بخبث!

انتهى الموقف وقد حوّله اللعين إلى حديث وحوار لفت به الجميع، كان حديثه عن توقع مؤامرة ضد الإمام ربما تقوم في (صنعاء) ويذكيها ما أطلق عليهم بالأحرار في عدن.

كان ذلك الحديث ما أراده، وقد تحقق له بحيث أصبح حديث الجميع، فإذا خبا أذكاه الشاعر بطريقته المحتالة.

وتفنّن ابن النائب (الضفدع) فى التأويل والتخمين والحسابات، وكنت ألاحظ اهتماماً بما يقوله ابن النائب من قبل الشاعر.

وصمت الجميع عند حدّ من الكلام كان كل واحد منهم يعرف أنه منطقة فاصلة بين الرعب والأمان.

كنت ألاحظ باب المنظرة، كانت الشريفة حفصة تختلس من وراء صاحبى، ترمقنى بنظرها، تريد التأكد من تقديمى الرسالة للشاعر.

وأظهرت عدم الاكتراث بها وبرسالتها وبالشاعر وتناولت كأساً مما قدمه لى الشاعر بعد إلحاح منه ومن ابن النائب الضفدع وتجرعتها بإحساس من المرارة والتقزز كبته بصعوبة، ومع ذلك فقد كانت كأساً جعلتنى أتعالى أكثر وأزهو بنفسى وألعن الكون كله ومن فيه إلى هذه اللحظة.

وشربت، شربت الكأس الثالثة المقدمة لى بإلحاح من الشاعر ومن ذلك الضفدع الآدمى.

لم أعد أتذكر من مجلسنا سوى بعض لمحات، كقيام ابن النائب بالرقص مقلداً كما قال (سامية جمال) و(تحية كاريوكا).

كان يهز وسطه وقد أخذ (لحفة) أحد الأصدقاء وربطها بخصره المكتنز، ثم شعرت بأنه يغنى كما قال (لفريد الأطرش).

وأتذكر بأن الهرج والصياح والحديث الصاخب قد زاد. أذكر أيضاً أن صاحبى كان يقدم أطباقاً من اللحم المشوى (المحنوذ) شهى الطعم، وكنت أتناول القطعة تلو الأخرى بنهم وشهية مفرطة، وكان صاحبى على ما أذكر يحاول أخذى من ذراعى ولم أطاوعه، أذكر نظرات الشريفة حفصة الغاضبة وهى تتابع المشهد من باب المنظرة.

وقدم لى الشاعر كأساً أخرى على ما أذكر ولا أدرى كيف أمسكت بها، وهل شربتها أم أنها انساحت على ثيابى، كل ما أذكره أن يده قد كفّ عن عادتها السيئة، وخيل إلىّ بأن النائب نفسه قد وصل فجأة وبيده زجاجة طويلة العنق بيضاء اللون والمحتوى. وكنت قد وقفت بهبالة احتراماً لمقدمه كما تخيلت، وقد جذبنى الشاعر من يدى لأرتمى بجواره كما كنت، وقدم لى كأساً أخرى أذكر أننى لم أستطع الإمساك بها، فتركتها بيده حتى ضجر منها فشربها، وجلس النائب والعرق يتصبب من صلعته إلى أوداجه المنتفخة ليبلل ذقنه الخفيفة، وصبّ له كأساً من زجاجته المفضلة كما يبدو وعادلها بماء تحولت الكأس بعدها إلى لون لبن بقرة دسم!

أتذكر أننى لم أشبع فى حياتى كتلك الليلة، ويبدو أننى نهضت لقضاء (حاجة) فشعرت بأننى أترنح، وبأن الوجوه التى أمامى أصبحت مزدوجة، شعرت بأننى قد وصلت إلى حالة سيئة، كنت أقذف بجسمى أو أن جسمى هو الذى يقذف بى فى درجات السلالم دون تروّ، ثم أقف محاولاً جمع شتاتى متلفتاً حولى، وأذكر بأن الشاعر ولا أدرى ما هو

الدافع، هبّ لمساعدتى على نزول الدرجات الحجرية، لكننى أتذكر أننى هويت بيدى اليمنى على خذه بصفعة قوية سمعت صداها بأذنى فصرّ أسنانه وعاد إلى المنظرة.. بينما اتجهتُ إلى ساحة القصر نحو الفسقية وأنا أحاول التصفير بلحن شعبى دون جدوى، فارتميت على حافة الفسقية ولم أشعر إلا بصاحبى ينزعنى نزعاً ويضطر إلى سحبى لداخل الغرفة.وكانت ليلة.. ليلة لم تمر فى حياتى مطلقاً، وكم ساعد نى صاحبى لإفراغ ما فى جوفى.

* * *

تدكرت كل ذلك فى صباح اليوم التالى، كان رأسى ثقيلاً ونفسى تدعونى للتقيؤ من جديد. كان الغثيان والصداع قد سيطرا على حالتى وانتابتنى هواجس مؤلمة وكبة مقيتة علنى واحتلت وجدانى لفترة لاحقة، كم شعرت بالخجل، وكيف سأخرج من الغرفة وزواجه كل من عرفته وعرفنى فى تلك الليلة، حتى صاحبى الذى كان قد غادر فراشه مبكراً حسب عادته قبل قيامى، كيف سزقابله وأعتذر له، وتداعت علىّ هموم عديدة وغمخرنى الحنين إلى أسرتى بشكل مكثف لكننى بعد ترو لممت كل ذلك لمواجهة الواقع الذى قذف بى فيه كأننى غريق أصارع الأمواج متشبثاً بقشّة!

مر ذلك اليوم كأنه هر وأنا فى حالة قلق وغم ونكد.. أصارع قلبى وعقلى ونفسيتى المرهقة التى باتت تدفعنى حثيثاً لممارسة صاحبى وزميلى وصديقى من أشياء لم أقبل الإقدام عليها ولا حتى مجرد

التفكير فيها منذ أن وطئت قدماى هذا القصر وملحقاته ومن فيه، ولكنى بأمل بالغ ومذلّ حاولت جهدى أن أخرج من هذه الدوامة بأى حل، ولكن دون جدوى، فقد حصل ما حصل وكأنه بذرة تتحول فى مسارى.

* * *

وكان صباح يوم، انفرجت أزمتى فيه بأزمة أخرى لحادث وقع فى محيط القصر وأعتبر فضيحة فاحت رائحتها لتغطى على ما كنت أعتقد بأنه فضيحة ارتكبتها أنا فى تلك الليلة المشؤومة من ليالى الشريفة حفصة! وكما يقال مصائب قوم عند قوم فوائد، فقد تم نقل (الطبشى)(٤) العجوز إلى الطبيب الإيطالى الوحيد فى المدينة، كان (الطبشى) كثر الله خيره وشفاه، قد هشم رأسه الأصلع وسالت الدماء منه وفقد وعيه إثر ركلة عنيفة من حافر بغلة النائب الصغيرة القوية المسماة (زعفرانة)!

ولاكت الألسن فى القصر بل وفى المدينة سيرة ذلك الحادث، وأصبح موقف (الطوشى) العجوز محرجاً حتى بعد تماثله للشفاء وعودته إلى زملائه العساكر!

ومسّ ذلك الحدث جميع رفاق العجوز من زملائه العسكر، بل ومسّ سكان القصر بمن فيه، وخصوصاً أن الحادث قد وصل إلى ولى العهد السيف.

وأمر النائب سُياسه الخاص بخياط فرج البغلة والبهائم الأخرى!

ضحك صاحبى وهو يقول معلقاً:

- كان على النائب أن يأمر بخياطة فروج نساء القصر! لم يعجبنى مباغتة ذلك التعبير، ولو أنه أضحكنى، ومع ذلك فقد سررت بأن هنالك موضوعاً قد طغى على حدث تلك الليلة الخاص بى!

* * *

بعد يوم عمل شاق اتجهت مع صاحبى وقد دفعته إلى جولة فى اصطبل البغال والحمير.. ولجنا الباب، كان السائس العجوز يقدم للبغال العلف والقضب، ويمسح (ببرشانة)[٥] حديدية مدببة الأسنان ظهور البغال لإزالة الشعر الميت وقتل الحشرات المؤذية المختبئة.

كانت(الزعفرانة) تهشّ بذيلها الذهبى الذباب من على فرجها المكتنز الأملس الجميل، وقد تكاثر الذباب حوله إثر تلك الخياطة القاسية التى أمر بها النائب والتى تركت بعض تقيحات وجروح.

تأملتها، أعنى (الزعفرانة)، نافرة ومغرية فعلاً رغم ذلك، كأنها الشريفة حفصة!

قلت لصاحبى:

- لا ألومه إذا أقدم على ما أقدم عليه!

- أتعنى (الطبشى) العجوز؟

- نعم.

- كان لديه فى القصر عوانس كثيرات!

ـ إنه عجوز ولن تقبله أى واحدة منهن.

ـ كان سيجد.

ـ لا أعتقد، وخصوصاً بوجودك ووجود المتصابى (البورزان)، وبقية العساكر الشبان!

ـ ونسيت نفسك، ألست منا؟!

ـ أنا هائم بواحدة فقط، ولن أصل إليها مطلقاً.

ـ الشريفة (حفصة)؟!

ـ الشريفة (الزعفرانة).

وضحك ملء شدقيه، وقد أطربه ذلك التشبيه!

* * *

سارت الأمور بينى وبين الشريفة حفصة شبيهة نوعاً ما بالخصام الصامت، لم تكن تبدى أى اهتمام بى، ولا أنا أيضاً رغم غليان قلبى بخفقاته الساذجة الضعيفة التى لم أستطع السيطرة عليها أو إخفاءها وتضميدها.

كانت تقول لى: إفعل هذا، هات هذا، خذ هذا.. اذهب إلى ذلك المكان، انصرف.. عد.

وكنت أجيب إذا لزم الأمر، فأنطق: حاضر!

وذات يوم من أيامنا العابسة الغاضبة، لا أدرى كيف فاجأتنى متسائلة:

- لماذا صفعت الشاعر؟

أثارت بتساؤلها الخبيث أعماق مشاعرى قلت:

- ما أسهل الصفع فى هذا القصر!

وعبست مكشرة، وتخيلتها فعلاً تحمل ذيل البغلة (الزعفرانة) الذهبى اللون تهشّ به «بنرفزة» واضحة وتتهيأ لركلى بقدميها، فانصرفت!

* * *

مارست مع صاحبى جميع هواياته ورذائله القذرة، واندمجت فى عالمه الغريب حتى كاد يغار منى! فقد تعلقت بى النسوة المتعددات المواهب والمتنافرات أشكالاً وألواناً وأعماراً وقد سئمن من صاحبى لسعاله الشديد ونحوله الشاحب. وخوفهن من ذلك المرض المرعب.

كدت أشفق عليه، بل أشفقت عليه فعلاً وهو يتلوى فى مكانه كحية جريحة، وقد تحول سعاله إلى فحيح مكبوت لكى لا يزعجنى، كنت أوهم نفسى وباقتناع تام بأننى أدرأ عنه أعباء لم يعد قادراً على تنفيذها ومواكبة السير فيها كما كان فى أيامه السابقة، ومع ذلك أحسست باحتقار لنفسى ولمسلكى المشين!

وكان عليه لقربه من باب الغرفة عبء فتحه لكل طارق، وكم كان يتألم بأن يجد الطارق يريدنى أنا ولا يريده، حتى النائب لم يعد يريده لفرك رجليه وقدميه، كان النائب يفضلنى للقيام بتلك المهمة!

تألمت لهذا الوضع المقلوب الذى تحول نحوى، وزادنى ألماً ذات يوم حين أخبرنى به ونحن عند البوابة الرئيسية للقصر مع العساكر

والبورزان وذلك الطبشى العجوز نتناول طعام الإفطار كالعادة حيث قال لى:

ـ عليك اليوم مرافقة (الشرائف) إلى قصر ولى العهد.

كانت مهمته دائماً منذ وصلت إلى قصر النائب وحتى الآن، ول ادرى ما الذى عكس الأمور قلت له مواسياً:

ـ أهذا اقتراح الشريفة حفصة. أم هو أمر؟

ـ .. ربما اقتراح الشرائف كلهن وهو أمر على كل حال صادر من النائب كما بلغت به.

أخرجت اللقمة من فمى قبل أن أمضغها وقذفت بها، وقمت متألماً وقلت محاولاً أن أوحى له بأن الأمر عادى ولا يهمنى وإنما يزيدنى تعاسة:

ـ أنت أخبر منى بهذه الرحلات، وخصوصاً إلى قصر ولى العهد.

أجابنى وقق فرش ابتسامة باهتة على شفتيه:

ـ لكل عصر رجاله!

ـ هذا تعذيب متعمد لى منك!

ـ لا..

ـ بل وجرح كشاعرى!

ـ لا أقصد.

- وقتل صامت لى!

- لا تفكر فى هذا.

- لقد أغـويتنى، هذا صـحـيح! ولكنك لن تغـوينى لارتكاب خـيـانة وبأنانية مفرطة.

- لم أغوك مطلقاً، فأنت مالكٌ نفسك.

- بل أغويتنى.

- بماذا؟!

- بالكثير من الأمور، أتريد أن أذكرك ببعضها؟

- لا أتذكر شيئاً، ومع ذلك فلا تدع الأمور فى ذهنك تصل بك إلى سوء الظن هذا.

- أنت سيىء الظن بـ..

- معاذ الله!

- تجرحنى يومياً.

- ما شاء الله!

- أعوذ بالله؟!

- هذا يكفى.

- لا.

- أصبح الجميع ينظرون إلينا ونحن نتجادل!

- لا يهمّ.

- أرجوك لا ترفع صوتك.

- بل سأفعل ذلك.

- لماذا كل هذا الإزعاج؟!

- لكى تعرف أننى أحبك كأخى الذى فقدته منذ زمن طويل.

- لا يهم، أنا أخوك، اعتبرنى بمقامه.

- منذ وصلت هذا القصر وأنا أعتبرك أخى فعلاً.

- إذن لا داعى للتشنج!

- نعم.. وهل هو أنا؟

- إذن سأتشنج أكثر.

- مهلاً! وليكن! ولكن لا ترفع صوتك هكذا.

- سأرفعه حتى يسمعنى النائب.

- أكيد قد سمعك!

- ويسمعنى من إليه.

- لقد التقطوا الصدى!

- ويسمعنى العالم كله.

- وتسمعك حفصة، الشريفة حفصة!

- حفصة أو الزعفرانة، لا يهم .. لا داعى لكل هذا.

ـ لكى يعرفوا يا صاحبى بأننى لم أخنك مطلقاً.

ـ انتهى الموضوع.

ـ لم ينته.

ـ بل انتهى ، وقم بنا إلى الغرفة أخبرك بما هو واجب عليك.

ـ أىّ واجب؟!

ـ مرافقة (الشرائف) إلى قصر ولى العهد!

* * *

كانت أصغر زوجات ولى العهد تريد التعرف إلى نساء بيوت المدينة المشهورة، وبالتالى فنساء النائب هن أول المدعوات لهذا اللقاء.

وصلت سيارة البريد الوحيدة التى يملكها الإمام لنقل البريد من العاصمة إلى جميع المدن الرئيسية. وصلت السيارة إلى فناء القصر لنقل نساء النائب ومن ضمنهن الشريفة حفصة بالدرجة الأولى لأن زوجة الأمير سيف الإسلام ولى العهد تريد رؤيتها بالذات لما شاع عنها من أخبار وأعلام ترتقى إلى مقام الأسطورة المدهشة!

سلّمت لى عدة حزم من (القات) المغلف بأغصان (العثرب)[٦] الخضراء. كان القات قد أحضر من مزارع النائب العديدة المجاورة للمدينة والتتى يقوم بفلاحتها شركاؤه من الرعية البسطاء على ثلث المحصول.

كانت الحزم ثقيلة على كتفى، وقد ألزمت بوضعها فى مكان مناسب فى مؤخرة السيارة مع المحافظة على أن تظل مغلفة بأوراق (العثرب) الخضراء لكى لا تذبل أغصان (القات) من الحرارة.

تلك كانت أهم المهمات التي كلفت بها، إضافة إلى إسدال ستائر السيارة الرمادية بعد أن تكون النسوة قد جلسن بداخلها، وكذلك الوقوف في مؤخرة السيارة، حيث أرشدني السائق المشاكس كيف أضع قدمي على الحديد الأفقي في المؤخرة وكيف أمسك بيدي العمود المقوّس في مؤخرة السيارة، وقد أجريت بعض التجارب قبل خروج النسوة من القصر وقبل أن يعلو حوارهن الصاخب ويسمع بدرجة عالية ليغطي على صوت محرك السيارة وبوقها الملتهب!

ما أصعبها من مهمة كلفت بها دون خيار! وخصوصاً أنني سأركب لأول مرة في حياتي سيارة، وبالذات في مؤخرتها واقفاً متشعبطاً بين الحياة والموت! ومع ذلك فقد علتني نوبة من الحماسة والفرحة للقيام بهذه المهمة، وكنت أعتبرها رحلة مثيرة فعلاً، فلأول مرة سأركبب سيارة (تخنّ)[٧] بذلك الصوت المفزع الذي يقلده الأطفال بأفواههم دائماً منذ شاهدوا سيارة البريد الإمامية الوحيدة تصل مدينتهم، وسأتعرف على قصر الأمير سيف الإسلام ولي العهد الجديد الشامخ الذي اختاره ولي العهد مقراً لقصره الكبير.

سأتعرف على أشياء جديدة لم أعرفها من قبل، سأتعرف على (عكفة) ولي العهد بلباسهم الأزرق وأسلحتهم الحديثة الألمانية الصنع. كذلك عبيده السود المرد ذوي الأنوف الفطس والأجسام الطويلة المهابة! سأتعرف أيضاً على الأسود والضباع والنمور الكاسرة الرابضة في أقفاصها الحديدية داخل بهو قصر ولي العهد، وسأتعرف كذلك على ذلك الحيوان العجيب، الذي يطلقون عليه اسم (الوضيحي) أو المهاء

العربى، والذى يقال عنه بأن له قرنى وعل ورأس معزة وفم جمل وحوافر حمار وجسم بقرة وذيل حصان، وله جلد ملون الشكل بجميع ألوان الحيوانات وبأن مخلفاته من نفايات عجيبة الشكل واللون ذات رائحة عطرية!

كنت أعرف من خلال ما قد سمعته بأن ولى العهد يحتفظ بهذه الحيوانات الكاسرة فى مطابقها الحديدية المطلة على ساحة القصر لكى يتسلى بها عندما يلقى فى بعض الأوقات ببعض من خصومه إلى أقفاصها، وبأنه كان يتلذّذ برؤية ذلك المشهد الذى تقشعر له الأبدان ويشيب له الولدان، على حد تعبير جدتى رحمها الله!

هذا ما فدعنى للمغامرة بالقيام بمرافقة نسوة النائب، ولطمى بأن الشريفة حفصة ستكون إحداهن، وبالتالى سألاقى منها إحراجات وتعنتات ومواقف أنا فى غنى عنها، ومع ذلك فهى مغامرة لابد زن أخوضها، كان قلبى يخفق لمجرد اليقين بأن الشريفة حفصة ستكون من ضمن النساء!

كانت سيارة البريد مغطاة من الأمام بقفص خاص بالسائق وراكب بجواره فقط، أما من الخلف الواسع فقد كانت مغطاة بقماش خشن رمادى اللون تتخلله من جانبيه بعض نوافذ بلاستيكية صغيرة معتمة لا تسمح للضوء بالدخول بعامل تقادم الزمن! وكانت الفتحة الخلفية للسيارة هى التى سيدخل منها النسوة، وعلىّ إسدالها بعد ذلك.

كان السائق عجولاً يحثّ بواسطة بوق سيارته الجميع للصعود، وكان قد ركب بجواره فى مقدمة سيارة البريد أحد الخاصّة من رجال النائب الذى يثق بهم ويركن إليهم فى المحافظة على نسوة القصر!

وأمرنى السائق بفتح الستارة الخلفية بصوت وقح نزق لكى يصعد منها النسوة بواسطة درجات حديدية مثبتة على صدام السيارة الخلفى.

انفعلت غاضباً لوقاحته، وزادنى وقوفه المبتذل بجانبى تيتلع إلى وجوههن ويتمتع برؤيتهن ويكاد يلتهم بنظرة أجسامهن!

ولا أدرى كيف واتتنى الشجاعة، وربما الغيرة فنهرته منبهاً إياه لمسلكه هذا، فعاد إلى مكانه فى مقدمة السيارة غاضباً تعلوه قترة إشمئزاز موجهة نحوى تحملتها برغم احتقارها لى من نظراته الشرسة العدوانية.

وصممت على موقفى ونفذته رغم كل تعاليه المقيت واعتباره إيّاى مجرد (دويدار) و(رهينة) فى قصر نائب من نواب مولاه الإمام!

كانت يدى اليسرى رافعة لستارة مؤخرة سيارة البريد، ويدى اليمنى متأهبة لمساعدة أى من النسوة على الصعود إلى داخل السيارة وخصوصاً إذا كانت إحداهن عاجزة لكبر سنها، وما أكثرهن فى قصر النائب وملحقاته!

وبدأ صعودهن، حتى نساء الجيران، أعرفهن كلهن، كانت حواسى وكل وجدانى، ودقات قلبى الساذجة تدق بسرعة عند توقعى وصول الشريفة حفصة وصعودها من أمامى إلى السيارة.

هل أنظر إليها! هل أجاملها ببشاشة إذا ما تكرمت بالنظر إلىّ وابتسمت إذا قدر الله؟ هل أقدم لها خدمة ذاتية إذا أتاحت لى الفرصة لعمل ذلك؟ أساعدها على الصعود، أهتم بشرشفها من الاتساخ، أوسع لها المكان المناسب داخل سيارة البريد مثلاً؟! أفرش لها بعضاً من

ثيابى تحت كرسيها الحديدى، أنتشل حذائها إذا سقط وأعيده إلى رجلها البضّة؟ ماذا سزفعل لها، وماذا ستفعل بى؟

ومرت العملية بسلام، صعدن بانتظام، وعندما حاولت الشريفة حفصة الصعود انزلقت قدمها اليمنى إلى الأرض فاختل توازنها مما جعلنى اندفع تلقائياً لاحتضانها بخوف ووجل.. وحملتها مساعداً لها للنهوض إلى داخل السيارة.. لا أدرى كيف غاصت يداى فى ثنايا جسمها كأننى ألمس شيئاً خرافياً مهيباً لذيذاً اهتز جسمى كله له. وكانت مهتمة فقط بإصلاح شرشفها وزينتها، لا أدرى كيف، أفلتت منى ابتسامة، قابلتها بأن كشرت بهيبة كأنها نمرة بكر.

ارتاح قلبى ووجدانى وجميع أحاسيسى، فقد عملتها الشريفة حفصة حركة لكى تربكنى، وأضمها بين ذراعىّ!

هذا ما اعتقدته وهو صحيح منطقياً، لكنها لا تريد أن أصدق ذلك، وكيف لا أصدق ذلك وهى الشابة القوية الوحيدة منمجموعة نساء قصر النائب، وقد طلعن كلهن بلا حادث على الإطلاق، وهى الوحيدة التى تتعثر على درجات السيارة بينما غيرها وهن عجائز لم يحدث لهن شيء؟

انبسطت أساريرى ونفسيتى لهذا الموقف، وأسدلت الستارة الغليظة على مؤخرة السيارة لكى أكتم أنفاسهن، ثم تشعبطت كما وجّهنى السائق النزق من قبل أن أختلف معه، وقد أعطيته الإشارة بالمغادرة، وإن كان قد سبقنى للتحرك قبل ثوان، مما كان سيودى إلى سقوطى على ظهرى إلى الأرض.

تحركت السيارة لتخرج من بوابة القصر نحو المدينة ذات الشوارع الضيقة التى لم تكن فى الحسبان أنها ستمر بها آلة ذات إطارات أربعة تقل أكثر من شخص أو شخصين! ومرقت بنا السيارة من الباب الكبير للمدينة لكى تتسلق بعد ذلك عقبة مرصوفة بالحجارة السوداء، شقت بهذه الطريقة منذ مئات السنين منذ عهد الملكة (أروى) والمعدّة للقوافل.

ما زلت متشعبطاً حسب توجيهات السائق النزق قبل اختلافى معه، ولكننى شعرت بالإعياء نفسياً.

وفتحت الشريفة حفصة الستارة الغليظة بعصبية كادت أن تربكنى لأسقط منبطحاً على الأرض لولا أننى تماسكت.

ونظرت إليها بحزم محاولا إعادة الستارة الغليظة على ما كانت عليه، فصاحت فى وجهى:

- دعها مفتوحة، حتى نشم قليلاً من الهواء!

وارتبكت لصوتها الذى يستولى على كل حواسّى. وجاهدت لكى أزيح الستارة الغليظة رلى سطح السيارة مما أدى إلى ترنّحى وكدت أقع إلى الأرض، فصاحت بالسائق بأن يقف مشركة يدها بالدقّ على نافذته الزجاجية ومكررة نداءها القوى له قائلة:

- أوقف السيارة.

وتوقف السائق النزق لصوتها الآمر الذى لا يود وهو يتسائل عن السبب، فقالت بحدة:

ـ أتريد قتل الرهينة، الدويدار؟

ـ معاذ الله!

ـ دعه يدخل ليجلس بيننا.

وتململ المرافق الخاص الجالس بجانبه بالموافقة له بذلك فقال السائق:

ـ فليدخل يا سيدتى!

وأمسكت الشريفة حفصة بتلابيبى وجذبتنى إلى جانبها وأنا فى غاية الخجل لهذا الموقف!

كانت الطريق وعرة وحركة السيارة مهتزة.. وجسمها يحتكّ بجسمى وأنفاسها تلدغ خدى.. وتقيأت بعض النسوة وبعضهن اندمج فى حديث لم استوعبه، لكنها لم تكن معهن مشتركة، كانت تنظر إلىّ وتبتسم ثم تكاد تضحك، بل انفجرت بضحكة بعد ذلك مدوية صمتت إثرها النسوة عن التقيؤ والحديث ونظرن إليها باستغراب، وخيلّ إلىّ أنهن نظرن إلىّ أيضاً، ولم تعرهن اهتماماً فبدأن بالحوار من جديد ولو أنه حوار ملفّق!

كان العرق يتصبب من وجهى بغزارة ويكاد أن يبلل جميع ثيابى، قالت وقد لكزتنى بكتفها:

ـ مالك هكذا كالأهبل؟!

ولم أجب، وبللت شفتى بطرف لسانى قالت:

ـ صامت كأنك صنم!

ـ لأول مرة أركب سيارة.

ـ أتشعر بالغثيان؟

ـ لا أدرى.

ومـدّت إلى وجـهى بطرفـ من شـرشفـهـا وهى تضـحك وتهـمس ساخرة:

ـ أتريد أن تتقيأ مثل بعضهن!

ـ إذا لزم الأمر سأفعل ذلك خارج السيارة.

وغضبت فجزة قائلة:

ـ مالك هكذا؟ كزنك جالس فوق جمر!

ـ وأكثر

ـ تعرفـ كل من فى السيارة! أليس كذلك؟

ـ لا أنكر، أعرفـ معظمهن.

ـ تتصنع بالخجل والحياء؟

ـ لا أتصنع شيئاً من ذلك.

ـ ستقول بأنك هكذا، منذ خلقت!

ـ نعم.

ـ لا تضحك علىّ خبّرنى من منهن لم تضاجعها؟!

لم أجب، فقالت:

- أهى تلك ابنة عم النائب؟ أو تلك التى تنظر إليك باشتهاء؟ هى أحد أفراد الأسرة، لكنها تسكن الريف؟

أجبتها وأنا أودّ لو أتمكن من الوثوب من السيارة إلى الطريق:

- أرجوك، لا تحرجينى أكثر من هذا.

- هل قلت شيئاً كاذباً؟

- سأنزل الآن من السيارة.

- مستحيل ذلك، فسأتبعك.

- لكنى لم أعد أطيق مثل هذا الهذيان.

- أتجسر على قول هذا؟

- هى الحقيقة.

- وتؤكد ذلك لى، وأنا أخت النائب، الشريفة حفصة.

- تعاملينني كطفل ساذج.

- أريد أن أراك رجلاً!

- أنا رجل.

- لم تبرهن على ذلك مطلقاً!

- أتريدين أن أكون فاسقاً؟

- معاذ الله يا سيدى فضيلة الوالد العلامة؟!

* * *

حمدت الله على وصولنا إلى قصر ولى العهد، حيث وثبت سريعاً لكى أفسح المجال للنسوة بالنزول من السيارة.

كنت أتوقع أن تنزل على إثرى الشريفة حفصة لقربها من الباب بجوارى، لكنها تأخرت إلى النهاية، قالت وقد نزلت:

- لا تغب عنا فنحن في حاجة إليك. وبعد تناول الغداد أحضر (القات).

ألقت كلامها كأمر صارم وجل له السائق النزق وحتى المرافق الخاص وحاول بعض النسوة الأخريات تقليده وتكراره فلم يكن لمحاولتهن ذلك صدى، سوى استهزاء السائق النزق الواضح بهن!

ومكثت فى ساحة قصر ولى العهد والقات معى ولا أدرى ماذا أعمل، كنت أشاهد (عكفة) سيف الإسلام ولى العهد الحرس الخاص يتمخطرون بزيهم التقليدى الأزرق اللون وصياحهم الدائم، كان المرافق الخاص الذى جادءمعنا وهو عجوز قد تقرفص بجوار حائط واتكأ على حجر وبدأ يتناول القات قبل أن يتغدى، ولا كلام لديه فهو صامت، فقد أحسن النائب اختياره لمثل هذه المهمات، لم يتعرف بى بالرغم من أننى أعرفه فى قصر النائب، لم يحاول حتى مجرد إرشادى أو الحديث معى فى أى شيء. تركته فى مكانه المختار مرتاحاً فيه واتجهت إلى الساحة الواسعة أبحث عن مكان الوحوش، أريد أن أعرف أشكالها، كنت قلقاً على القات الذى تركته بجوار المرافق العجوز فلابد أن يأخذ منه خلسة لكى يواصل ارتياحه فى مكانه المختار، كم هو شغوف بالقات حتى على حساب غذائه!

وصلت إلى أقفاص تلك الوحوش الكاسرة، أسود ونمور وضباع، هذا كل ما يحويه حوش سيف الإسلام ولى العهد من حيوانات كلها تمثل البؤس والرعب. كنت أبحث عن ذلك الحيوان العجيب المسمّى (بالوضيحى)، وقد عرفت بعد ذلك بأنه (المهاء)، اندهشت حين قال لى أحد العكفة بأننى سأجده خارج بوابة القصر يرتع بين الناس المنتظرين أى إفادة من ولى العهد لقضاياهم التى جاءوا من أجلها وبعضهم من أماكن بعيدة.

مللت التسكع فى جوانب القصر وقد شعرت بأننى كالغريب، وأثناء ذلك أقبل نحوى عبد أسود كأنه الليل الحالك ضخم الجثة، يلبس لباس (العكفة) وبجواره فتى جميل، أدركت أنهما يبحثان عنى.

واتضح لى بأن ذلك الفتى الجميل هو دويدار سيف الإسلام ولى العهد الخاص، غلام بضّ الجسم، جميل الشكل، نظيف الملبس، قال لى متسائلاً:

ـ هل أنت دويدار بيت النائب؟

لم أكن قد شعرت بأن لفظة (الدويدار) تصفعنى فى أى يوم كهذا اليوم؟!

هززت رأسى مرة أخرى، فقال بعد أن تفحصنى:

ـ يبدو أنك رهينة من القلعة؟!

هززت رأسى مرة أخرى، فمط شفتيه إلى أعلى ثم قال:

ليس مستحباً أن يكون الدويدار من الرهائن!

قلت بارتياح:

- فعلاً.

وكتمت كلاماً سأقوله، لكنه قاطعنى قائلاً:

- لأنهم سيئون ومشاكسون ويهربون دائماً!

طرقت مسمعى بانتباه كلمته الأخيرة فابتسمت أسأله:

- ماذا تريد؟

قال بخبث واضح:

- أنا؟ لا أريد منك شيئاً! الشريفة حفصة أصرت علىّ باستدعائك،ولا أدرى ماذا أريد منك؟

- إذا كانت تريد القات فقد تركته عند المرافق الخاص العجوز.

- لقد أخذناه من قبل، هى تريدك شخصياً.

اتجهت خلفه والعبد الأسود خلفنا، كنت ألاحظ حركات جسمه الرخو من خلال ثوبه الحريرى الشفاف، يبدو أنه لم يعد يتصنع تلك الحركات المائعة فقد أصبحت منتظمة لديه وطبيعية وعادية!

اخترق بى ممراً طويلاً ثم وصلنا إلى بهو مكشوف تهمس فيه أصوات مياه (الشذوران) الصافية وسط فسقية مدورة وواسعة أكبر بكثير من فسقية قصر النائب، وبداخلها زورق صغير يعوم فيه فتى وسيم فى الثالثة عشرة من عمره تقريباً. واقترب هذا الفتى بقاربه نحونا، ومد يده إلينا، انتظرت بأن يقوم الدويدار الخاص بولى العهد أو عبده

بمساعدة الفتى لارتقاء حافة البركة من القارب، ولكنهما لم يأبها له، فقدّرت أنه من الواجب علىّ مساعدة فتى يطلب العون على الصعود من البركة، فمددت يدى إليه لكى أجذبه مساعداً إياه على الصعود، وفجأة أطبق على كفى وجذبنى بعنف فسقطت وسط البركة بجميع ثيابى وأصبت بحالة مربكة داخل الماء، كدت أن أختنق لتسرب الماء إلى حلقى وأنفى، وقد ساعد على ذلك ابتلال ملابسى مما أعاقنى عن التخلص من الغرق والعودة إلى حافة البركة.

واستطعت أن أضبط النفس وأتحكم فى حالة الغرق بعد ذلك. وعلتنى موجة من الغضب لهذا الموقف السخيف الذى ضحك له ذلك الصبى الطفل المدلل وجامله الدويدار الخاص بولى العهد المخنث وعبده الأسود العملاق.

كان لابد أن أقلب القارب رأساً على عقب وم بداخله، وقد فعلت ذلك وبعنف وتركت الصبى المدلل يتخبط مع قاربه وسط الماء بينما صاح الدويدار مستنجداً فهبّ بعض عكفة وعبيد ولى العهد نحونا، ودهشت لوثوبهم جميعاً بملابسهم وأسلحتهم وذخائرهم إلى وسط البركة لكى ينتشلوا ذلك الصبى المدلل الذى كان يتأوه بصوت مفزع يطلقه من أحشائه.

كنت مشغولاً بعصر ثيابى من الماء وهى مازالت على جسدى. وفجأة شعرت بلطمة غادرة ومركزة على أذنى اليسرى وبقية خدّى طار لها صوابى وتجاوب صداها المزعج فى جميع مرافق رأسى.

وتلفت حولى فاتضح لى بأن تلك اللطمة قد قام بها ذلك الصبى المدلل فأمسكت بتلابيبه ونهلت عليه لطماً وركلاً بعد أن بطحته أرضاً وكدت أدوسه تحت قدمى لولا تدخل العكفة والعبيد.

تحول ذلك اليوم الذى كنت أعتقد أننى سأتمتع به وأتعرف من خلاله على أشياء جديدة أو على الأقل أغيّر جو دار النائب الكبير وملحقاته ومن فيه!..

تحول ذلك اليوم إلى يوم شؤم ومتاعب لم أكن أتوقع حدوثها، ولم تكن تخطر ببالى أتوقع أن أسقط من على خلفية سيارة البريد، أن أضيع بعض حزم القات، أن أصطدم بالشريفة حفصة وبإحراجاتها، أن أقابل مثلاً الشاعر الوسيم، والذى لابد أن يعاملنى بقسوة وإذلال!

كنت أتوقع مثلاً أن تلتهمنى وحوش سيف الإسلام ولىّ العهد الكاسرة وأنا أتفرج عليها! لكننى لم أكن أتوقع أن يؤذينى صبىّ طفل مدلل وبهذه الطريقة.

كنت متوثباً للردعلى أى اعتداء آخر متوقع، وخصوصاً بعد أن أخذنى بعض العكفة والعبيد إلى البوابة الخاخرجية للقصر وأدخلونى إلى مكان الحراسة كأننى سجين، واتضح لى بعد ذلك أن الصبى الطفل المدلل هو فتى الأمير سيف الإسلام ولى العهد الذى يراه الدنيا بكلها!

قال لى كبير العكفة:

- ماذا فعلت يا مجنون؟!

- وماذا فعلت؟

ـ اعتديت على غلام مولانا ولى العهد

ـ كان هو المعتدى.

وصمت برهة ثم قال:

ـ أنت محبوس لدينا.

لم أجب، فاستمر وقد خف صوته قائلاً:

ـ حتى تستطيع الشريفة حفصة إنهاء الموضوع بطريقتها!

أثارنى قول ذلك فقلت:

ـ وما دخل الشريفة حفصة بهذا الموضوع؟

ـ أنت غلامها الخاص وهى المسؤولة عنك!

ـ غلام، صفة ثالثة أوصم بها! فقلت:

ـ لست غلامها، وليست المسؤولة عنى.

ـ عجيب قولك هذا!

ـ ما الغرابة فيه؟

ـ لقد قلبت الدنيا رأساً على عقب من أجلك، حتى أنها استطاعت مقابلة مولانا ولى العهد!

ـ وهل قابلت الشاعر؟

ـ من تقصد؟ لا أفهم

ـ الشاعر الوسيم.

- آه، أتقصد الأستاذ؟

- أقصد الشاعر.

- نعم، الشاعر هو الأستاذ! فهو يقوم بعض الأحيان بتدريس مولانا ولي العهد.

- ربما يكون هو.

- إذا كنت تقصده،، فقد وقف مع الشريفة حفصة مدافعاً عنك.

تألمت لهذا الخبر، وخفت أن يشعر كبير (العكفة) بشعوري فقلت وقد لممت مشاعري محاولاً نقل الحديث إرلى موضوع آخر:

- من يكون هذا الغلام حتى أعاقب من أجله؟

- أو لم تعرفه من قبل؟

- ولم أسمع عنه، فمن أين لي معرفته!

وابتسم قائلاً:

- هو الوحيد من خلق الله الذي يحبه مولانا سيف الإسلام ولي العهد، ويفضله حتى على أولاده وزوجاته وكل شيء في الدنيا.

واسترسل بطيبة وشفقة بي، وعرفت أنه أحد أبناء سائقي ولي العهد وله جذور تمت إلى أصل تركي أو أن أمّه من أصل تركي.. وقد تعلق به وليّ العهد بحب غير طبيعي حتى أنني شممت رائحة دعاية بأن يكون هذا الغلام ابناً غير شرعي لولي العهد وهذا ما هو مزعج للجميع!

فباستطاعة هذا الغلام ومنذ صغره أن يلعب مع ولي العهد في غرفته الخاصة، التي لا يدخلها أبناؤه الخلّص ولا زوجاته الجميلات،

ويلبى له كل طلب مهما كان مستحيلاً، حتى أن باستطاعته العبث بذقن ولى العهد وشاربه! وباستطاعته أن يصيح ويزعق فى مجلس ولى العهد الرسمى المهاب، ويقلب ذلك المجلس رأساً على عقب!

وعرفت بعد ذلك، وقد هدأت نفسيتى، أن الحادث لم يصل إلى ولى العهد بالصورة المرعبة التى كنت أتوقعها، فقد استطاعت الشريفة حفصة وذلك الشاعر الوسيم إقناع ولىّ العهد بأن الحادث عادى واستطاعا حجب الضجة المثارة عنه والتى كانت قد عمت القصر كله.

كان المغيب قد دنا، وسمعت صوت كبير العكفة بعد ذلك ينادينى بأن أخرج لكى أغادر سجنه لأركب مع النسوة العائدات على السيارة نفسها إلى دار الناذب.وثار الحديث داخل السيارة بين النسوة حول ما حدث وما فعلت، وصاح بعضهن فى وجهى بأصواتهن الكريهة وقد كشّرن عن أفواه قبيحة تبرز منها أسنان عطبة منحلة، وبعضهن بلا أسنان، كان موقفهن منى كأننى قد اخترقت السماء، وارتكبت جرماً لم يرتكبه أى بشر منذ بدء الخليقة حتى هذه الساعة!

كنت قابعاً بجوار الشريفة حفصة التى كانت قد جذبتنى للجلوس بجوارها كما كنا ولم تدعنى أركب مستقيماً فى خلفية السيارة.

كانت صامتة تنظر إلى النسوة وقد أفرغن كل كلامهن الغاضب علىّ من لوم وشتم وقدح وتجريح انصب على رأسى، وهى ما زالت تبتسم فقط، وتضحك بعض الوقت، تلك الضحكة الساحرة لفؤادى ووجدانى!

قالت إحدى النسوة:

ـ يا لطيف، لو علم مولانا ولى العهد بذلك لقلب الدنيا على رؤوسنا!

وقالت أخرى:

ـ مصيبة كبرى، وخصوصاً إذا علم الآن سيدى النائب لقلب الكون علينا أيضاً!

وقالت أخرى:

ـ فهو لا يرضى بما حدث.

وقالت أخرى:

ـ سترك يارب، لقد كانت مصيبة فعلاً والحمد لله أننا تخارجنا منها، حتى الآن.

وقالت أخرى:

ـ لا ندرى ما هو الداعى لاستصحاب دويدار رهينة معنا لا يعرف الذوق ولا الأخلاق ولا الأدب؟!

كدت أن أنفجر لهذا الحوار المقيت فأخرجت رأسى إلى خارج السيارة، ثم حاولت بكل جسمى لكى أتشعبط وأبتعد عنهن، لكن الشريفة حفصة كانت تجذبنى بشدة وعنف للبقاء بجوارها وهى تبتسم لكلام النسوة، وتضحك بعض الزحيان باستخفاف!

قالت أخرى من النسوة:

ـ من الخطأ تكرار ذلك مرة أخرى.

وأجابتها واحدة منهن بجرأة:

- إحدانا هى السبب فى كل ما حدث!!

وابتسمت الشريفة حفصة متربصة بسخرية ثم قالت:

- يا إلهى؟ هل كل هذا الكلام شفقة بغلام ولى العهد أم تشف بالرهينة الجالس بجوارى؟!

وصمتن إثر تجلجل صوتها المصحوب بضحكاتها المستهزئة، ومرت لحظة ولم أشعر إلاّ بالشريفة حفصة تدفع بى نحوهن فجأة! فارتبكت حين وقعت فى أحضان بعضهن، وهى تقول:

- حسدتمونى عليه لجلوسه بجوارى: ولم أحسدكن وهو فى فراشكن كل ليلة!

- لا تغترى بأنك الزليخا، زوجة عزيز مصر!

فأجابت الشريفة حفصة بسرعة:

- وليس هو يوسف يا غبية!

غمرنى الخجل لهذا الموقف السخيف الذى لم أكن أتوقعه. وفى خضم هذه الدربكة كان نظرى قد استقر على الفتاة الريفية القابعة بذهول وخجل فى ركن السيارة أكثر منى والصامتة دائماً!

وفى لحظة سريعة اندفعتُ إلى مؤخرة السيارة، وكانت قد مرقت تواً من الباب الكبير للمدينة، ووثبت إلى الشارع الخالى المقفر المقفلة حوانيت سوقه بحسب العادة وبالقوة وقت صلاة المغرب والعشاء، إذ لا

يوجد سوى بعض (القوانين) الشرطة بإرشاداتهم النحاسية المتدلية من أعناقهم على شكل هلال مع زعيق صفاراتهم النحاسية والموروثة منذ عهد الاحتلال التركى.

ومرقت إلى شارع ضيّق لا أعرفه، واندفعت ولم أتوقف، ولم أشعر إلا بأنفاس تلهث بعدى بطخى سريعة، مثلى.. كانت هى الشريفة حفصة، لا غيرها!

وأمسكت بذراعى بقوة هائلة:

- أين أنت ذاهب؟

- اتركينى من فضلك.

- لن أتركك.

- سأستخدم القوة نحوك لتركى!

- لا يهمّ يا جبان.

وأزحتها بعنف حتى كادت أن تسقط على الأرض، لكنها عادت فأمسكت بى بقوة مستعملة كلتا يدها، وقد انقشع عنها الشرشف الأسود لتظهر معالم أنوثتها الطاغية.. وكدت أن أهوى بيدى على وجهها، لكننى تراجعت وقد ظهر ذلك الوجه الجميل على ضوء القمر وقد طار عنه الخمار فقالت متحدية:

- اضرب!!

- .....

ـ ما بالك لا تفعل ذلك؟

ـ .....

ـ أريد أن أراك رجلاً!

وهويت بيدى، ولكن إلى فخذى وقلت بسماجة مهزوم:

ـ أرجو أن تصلحى «الشرشف» حولك!

وضحكت قائلة:

ـ ألم أقل لك إنك ما زلت طفلاً!

تمالكت هياجى الغاضب العنيف، وأنا على يقين بأنها تعرف أننى رجل، لكننا الآن فى شارع والناس سيلتمّون حولنا بعد خروجهم من المساجد وكان قد خرج بعضهم فعلاً.

قلت لها بتروٍ:

ـ أرجوك أن تتركينى أذهب وشأنى.

ـ لن أتركك فأنت رهينة، رهينتى الحالى!

ـ رهينة، دويدار، غلام، لست على بحارس.

ـ بل أكثر!

وتخلصت منها مندفعاً فصاحت:

ـ أتتركنى لوحدى، وأنا لا أعرف الطريق إلى البيت؟

ـ بل تعرفين الطريق جيداً.

- حتى لو عرفت.. ماذا سيقول النائب، والآخرون؟

- سهرة من إحدى سهراتك المعتادة خارج القصر والتى تقضيها إلى وقت متأخر من الليل أكثر بكثير من هذا الوقت!

- فضيحة عليك وحدك لزنك هارب.

ولم أجب وأنا أخبّ فى طريقى المجهول، فقذفتنى بحجر آخر آلمنى.

ووقفت غاضباً متألماً وقد أخذت ذلك الحجر من الأرض وهويت به نحوها بعنف، لكن لم أكن أقصدها فى اللحظة الأخيرة فقد طوحت به بعيداً عنها، واعتبرته تحذيراً لها لكى لا تتمادى أكثر.

لكنها لم تتراجع، بل أخذت حجراً آخر ووثبت به نحوى، فوقفت متحدياً وفى الوقت نفسه مستسلماً.

وهرعت نحوى والحجر بيدها، واقتربت منى حتى كدت أتوقع ارتطام الحجر فى رأسى لينزف دماً وألماً، لكنها هوت بالحجر بعيداً وألقت بجسمها ويديها تحتضننى بشغف لم أعهده حتى من والدتى! والدتى الحنون!

وانحنت إلى الأرض لتلتقط الحجر مرة أخرى مصحوباً بتشنجاتها الصادرة من قلبها الذى لم أعهده من قبل، وإن كنت قد سمعت دقاته وأثر فى قلبى الولهان وكل حواسى المرهفة.

وألقت بالحجر بعنف إلى الأرض وقد تمسكت بتلابيبى، فقلت ونا أسمع نشيجها:

- ما بك؟

لم تجب، وقد شممت فى تشنجها القريب إلى صدرى رائحة الجنة.. حاولت انتزاعها من على جسمى وقلت متسائلاً مرة أخرى:

- ما بالك؟

- لا شيء.

صمتت برهة وهى فى أحضانى أو أننى كنت بين أحضانها، وتململت قليلاً من بين أحضانى مبتعدة بجسمها فقلت:

- هل سأعود إلى السجن، والحبس، والقيد؟

- لا ينفع معك غير ذلك!

ومضيت بعدها بخطوات رتيبة كأننى أسير حرب وهى تخطو نحو مدخل القصر. وما أن دخلنا من البوابة الرئيسية حتى قام بعض العسكر باحتجازى عن أمر صدر من الشريفة حفصة! وقام بعضهم بدق قيد حديدى على ساقى، ثم انصرفت الشريفة نحو دارها!

ورحب بى العسكر والبورزان ببشاشة زائدة، عكّر صفوها شجار كاد يحدث بين العسكر والبورزان حول مكان مرقدى، وانتصر البورزان حيث أخذنى إلى صومعته الخاصة وقد صعدت معه والقيد الحديدى برجلى وهو يساعدنى على ارتقاء درجات (النوبة) قائلاً:

- عساكر أوغاد، لا أمان بينهم.

هززت رأسى شاكراً له حسن تدبيره وأنا لا أعرف السبب فى إكرامه لى شخصياً، كنت أتمنى أن أحبس فى غرفة صديقى، لكننى لم

أره وربما لا يعرف بمصيرى، ومع ذلك فلقد انتابنى شعور بالابتعاد عنه وأنا فى هذا الموقف، وليكن البقاء لدن البورزان، فهو بلا شك أخف وطأة من زملائه العسكر الآخرين.

وما إن دخلت معه الغرفة حتى وضع بندقيته جانباً وقام ففرش لى فراشاً ثم أعطانى كل ما أحتاج إليه فى مرقدى من مخدة وكيس للنوم ولحاف، واستأذننى ليخرج ومعه أدوات نومه معتذراً بأن عليه الليلة نوبة الحراسة، ونصحنى أثناء مغادرته الغرفة بقفل بابها من الداخل! ومضى.

أعرف أنه شهم ونبيل بالرغم من تصابيه وهفواته العديدة التى تؤخذ عليه.

ورغم تقديرى الحارّ له هذه الليلة إلا أنه خامرنى شك بأن لديه موعداً غرامياً مع إحدى نساء القصر!

وبالرغم من أننى لم أتأكد من صحة وهمى هذا، فإننى قد سمعتت فى تلك الليلة، والناس نيام، أصواتاً وحركات مشبوهة وحذرة خلف باب غرفته، أدركت أنها صادرة عنه وعن واحدة من نسوة القصر لم أميّز صوتها!

وأسبلت عينىّ للنوم كرهاً لكى أغفو بعد يوم شاق وأحداث جسام لم يكن يخطر على بالى أننى سأمرّ بها!

لكن النوم لم يأت، فقد كان ذهنى مشغولاً بتقييم تصرفات الشريفة حفصة فى هذا اليوم الذى مرّ. كيف أفسر كل ما حدث؟ وكيف أقنع

قلبى وعقلى وجميع حواسى به. وهل كل ما جرى فى هذا اليوم الراحل هو حب أم مجرد لعب؟!

* * *

رغم سهرى فقد قمت مبكراً مع بداية ومضات الضوء البكر للفجر الذى دخل الغرفة، وتدريجياً استطعتُ أن أرى بوضوح وضع الغرفة التى نمت فيها مكرهاً والتى كنت قد دخلتها ليلاً على ضوء لمبة جاز واهية الضوء!

كل شيء فى هذا المكان المستدير منظم ومرتب ونظيف أيضاً، لم أعهده حتى فى بيت النائب نفسه!

فراشه معدّ ولحافه مطروح بنظام وصناديقه الخشبية الملونة نظيفة رغم قدمها! وبعض أدواته الخاصة معلقة على الجدران بترتيب غاية فى الدقة ومتناهية فى التشكيل والتماثل الدالّ على الذوق الخالص.

وفى أسفل المكان جرة ماء وموقد لنار وبعض أوان فخارية ونحاسية تستخدم للطبخ ومغطاة كلها (بقوّارات)[٨] من القماش المزركش، حتى حذاؤه له مكان خاص يضعه فيه دائماً أما بوقه النحاسى المزيّن بعذبات متدلية ومزركشة، فقد علِق فى مكان لطيف وغطى بمنديل حريرى شفاف.

حسدته على هذه الحالة التى هو عليها من الترتيب ودقة النظام التى تطيل العمر..

وقمت لأفتح الباب، فوجدته راقداً خلفه فى موضع يطل على ساحة القصر، وبندقيته تحت فخذه وشخيره يعلو برتابة!

ترددت كثيراً، لكننى أيقظته لكى يكمل نومه داخل الغرفة.. وقام فزعاً، ثم لملم أشياءه كأنه كان يتوقع أن أقوم بهذا التصرف نحوه! وهمد فى داخل الغرفة فى نوم عميق بعد أن أقفل الباب ورائى.

استقبلنى من كان قد استيقظ من العسكر فى نهاية درجات سلم نوبة (البورزان) وأنا أتهاوى بقيدى الحديدى، مشكرين وقد علا صوتهم بالزامل المألوف (يا دويدار قد أمك فاقدة لك، دمعها كالمطر)!

هجعت فى مكان بجوار البوابة الرئيسية ذات الهواء العليل وقد اتكأت على حجر معدّ لذلك ونظرت إلى الميدان الفسيح غير آبه بزاملهم.

وأقبل صاحبى الدويدار مسرعاً نحوى وسلم علىّ بلهفة ثم جلس بجوارى وبيده طبق م نخزف بداخله كعك وأشياء أخرى تؤكل وموزعة على أوان صغيرة داخل الطبق، عرفت أنها من منزل الشريفة حفصة لمعرفتى بما تستخدمه من أطباق وأوان فى الحفلات المهمة!

لمحنى وقد انقبضت سحنتى، فلاطفنى بكلام عاطر لصباح يوم جديد!

قال مداعباً:

- ماذا فعلت يا مجنون؟!

- لم أفعل شيئاً.

- ﻫﻪ!

- ماذا تقصد؟

- بعض أشياء عرفت بحدوثها أمس.

- وثبت هى خلفى من السيارة، هذا كل ما حدث!

- من هى؟

- الشريفة حفصة؟

- لا أقصد هذا الحادث.

- ماذا تقصد؟

- لقد فعلت أكثر ذلك!

-... لا أتذكر!

- قيل إنك ضربت ولد ولى العهد؟!

- أتقصد ذلك الطفل المدلل الذى اعتدى علىَّ بإلقائى داخل البركة بكامل ثيابى وبدون سبب، وكنت أعتقد أننى أقدم له خدمة بإنقاذه؟!

- نعم. أقصد هذا الحادث.

- قضية انتهت وقد نال جزاءه!

- هل أنت مجنون أم أنك غبى؟

- أفضل فى هذه الحالة أن أكون مجنوناً!

- هذا أكيد!

- ربما أكون مجنوناً الآن!

صمت لحظة ثم قال:

- ذلك الصبى، هو ابن ولى العهد غير الشرعى والذى يراه الدنيا كلها، ويفضله على كل شيء وعلى أبنائه الشرعيين!

- لا أفهم ماذا تقصد؟

- وهل تعرف وتفهم ما هى أهمية الابن غير الشرعى لسيف من سيوف الإسلام وولى العهد؟!

لا!

* * *

قادنى وهو يحكى لى حكاية عجيبة. إلى أن أحد العساكر لفكّ قيدى بأمر من الشريفة حفصة معمّد من النائب مبالغة فى أهميتى لديها!

قال ونحن نسير نحو الغرفة:

- لقد كانت ليلة!

كنت أذكر لماذا لم أقاوم هذه المرة عند فكّ قيدى، عندما خضعت بسهولة وربما برغبة لفك قيدى، ولكزنى بكوع يده فقلت:

- خيراً.

- كانت ليلة، دار فيها حوار صاخب داخل القصر.

- هل حدث شيء؟

- لا! إنما كان عنك وعن الشريفة حفصة، وضربك لغلام ولى العهد، وغيابك المشبوه مع الشريفة حفصة، ليلاً؟!

لم أجبه فقد كنت أسترجع أحداث اليوم الذى مر. فقال:

- لابد وأن يطلبك النائب اليوم لمقابلته ليعرف القضية وخصوصاً بعد أن دافعت عنك الشريفة حفصة إلى درجة بكت فيها أمام النائب الذى أشفق عليك من بكائها الحار. وأنت تعرف مكانتها عنده!

هالنى تصور منظرها الباكى المتشفع أمام النائب وإن كنت لا أصدق أن تكون هذه الشريفة قد وقفت ذلك الموقف وهى التى لا تبكى مطلقاً! ولم أشعر إلاّ بعينى تغرورقان بالدمع الذى لم أستطع إخفاء انسياح قطراته على خدى، وإذا صحّ أنها بكت وبذلك الصوت الرخو الأشحب الذى سحرنى دائماً فقد حدثت معجزة وأىّ معجزة!

مسحت دموعى وقد شعرت بأهميتى وقيمتى لديها، فقد أصبحت أحتل ممن من قلبها ووجدانها جزءاً لا بأس به!

* * *

استدعانى النائب إلى منظرته الفخمة المفضلة التى يخلو فيها إلى نفسه لحظات من الصباح الباكر كالعادة يسحب أنفاساً من دخان (المداعة)، ويطل من النافذة الواسعة على ساحة قصره وملحقاته يراقب كل حركات سكان هذه المملكة الخاصة.

كان منبطحاً حسب العادة بكرشه الكبير وفخذيه المطويتين على بعضهما البعض، ودخلت من باب المنظرة الفخمة وألقيت بتحية الصباح، وكالعادة لم يرد بأحسن منها ولا بمثلها!

كان شارداً أكثر مما عهدته دائماً فى مثل هذه الساعة التى يكون فيها أرق طبعاً وأحسن من أى ساعة ززخرى.

وطال انتظارى واقفاً عسى أن يلتفت إلىّ.. لكنه لم يعرنى انتباهاً، وتنحنحت محدثاً صوتاً معتاداً فى مثل هذه المواقف فالتفت إلىّ وقال:

- هه، اقترب.

واقتربت نحوه وما زلت قائماً حيث تربّع فى مجلسه وقد برز كرشه السمين إلى الأمام قائلاً:

- ماذا فعلت فى قصر ولى العهد؟

- لم أفعل شيئاً.

- كيف؟ وكل هذه الضجة الصاخبة!

- مجرد ضجة لا أساس لها من الصحة.

- لا أصدقك، لقد فعلت شيئاً ما سيئاً!

- وما هو؟

- أتسألنى؟!

- ومن أسأل!

- لا تكن وقحاً.

- لست بوقح.

ورمى بقصبة المداعة جانباً ثم تراجع وقد خفف من توتره قائلاً:

- أين ذهبت مع الشريفة حفصة بعد ذلك؟

- إلى هنا.

- كذب!

- هل هناك معلومات لديكم عكس ما ذكرت؟!

صمت برهة ثم أعاد قصبة المداعة إلى فمه من جديد وقرقر بها قائلاً:

- فضلت المشى برجلى بعد وصولنا إلى المدينة لازدحام السيارة.

- والشريفة حفصة؟

- تركت السيارة أيضاً للسبب نفسه واتجهت معى ماشية إلى هنا.

- لماذا؟

- للسبب نفسه، وقد حبذت أيضاً السير لخلوّ الشارع من المارة فى تلك الفترة.

- هذا كلام لم أسمعه حتى من الشريفة حفصة!

ولم يكمل، وقد كنت على استعداد للردّ عليه إلاّ أنه قال بصوت حاد وغاضب:

- هذه أول وآخر مرة أسمح لك بهذا.

لم أجبه وقد طزأطأت رأسى، فقال:

- إعرف ذلك جيداً، وخصوصاً فى هذه الأيام المقبلة.

لم أجبه أيضاً، فقال مستفسراً مرة أخرى:

- وماذا فعلت بغلام ولى العهد؟

- كان هو المعتدى، وقد حصل ما حصل.

- لا تكرر ذلك مرة أخرى بعد الآن.

- . سمعاً وطاعة.

- لا تظن نفسك فى بلادك تفعل ما يحلو لك عمله، أنت هنا رهينة ودويدار فارْع النعمة التى أغدقت بها عليك وجعلتك تنزل من قلعة الرهائن إلى قصرى لتنعم بالعيش الرغد.

- أود أن أعود إلى قلعة الرهائن.

واستشاط غيظاً صائحاً:

- هذا مستحيل.

- ليس مستحيلاً، فقد بلغت الحلم.

- لا تكذب! هذا صحيح.

- لا تعرف شيئاً. فأنت جاهل.

- أعرض ذلك واضحة على جسمى.

- لا يبدو ذلك.

- أتريد أن أريك؟

- أنت وقح، وتحلم فقط.

- هى الحقيقة، ولماذا أحلم؟

لكى يقال عنك أنك رجل!

آلمنى قوله ذلك، فقد أرجعنى إلى قول الشريفة حفصة وكأنها مع أخيها النائب متفقان على رأى واحد ضدى، وقلت بحنق:

ـ أنا رجل قبل وصولى إلى القلعة وإلى هنا.

ونهض النائب بكل ثقل جسمه وقد شعرت بأنه يصرفنى فخرجت.

* * *

استدعانى النائب مرة أخرى فى صباح اليوم التالى وقال:

ـ كن هنا بمعيتى، لا تذهب إلى أى مكان آخر.

وتقبلت أمره لكننى قلت:

ـ وماذا سأعمل؟

ـ أشرف على مكان المقيل وأعدّ كل مستلزماته، الضرورية، فقد أصبحت رجلاً.

* * *

كان صاحبى (الدويدار الحالى) قد زاد لونه شحوباً وجسمه هزالاً وأصبح سعاله الحاد يوقظنى من منامى أكثر من مرة فى كل ليلة.

كان يسعل حتى يكاد يغمى عليه، ولا يفيق إلا بعد أن أضمه إلى صدرى ويداى مطبقتان على صدره المتهاوى نتيجة لذلك السعال الحاد.

حواشى الفصل الثانى

(١) الكتم: خبز ردىء يصنع خاصة للجند، والبرعى: هو حبوب البزاليا المطبوخة.

(٢) السحاوق: الطماطم المسحوقة مع البهارات.

(٣) معاشر: جمع معشرة وهى فسقية من النحاس كبيرة تتوسط مكان المقيل ويوضع فيها التحف النحاسية و(المدائع) ولوازم المقيل...

(٤) الطبشى: جندى المدفعية.

(٥) برشانة: مشط من الحديد أوالنحاس خاص بالخيل والبغال.

(٦) المشرب: نباتات مختلفة.

(٧) تخنّ: تصدر أزيزاً من محركها.

(٨) جمع قرَارة وهى غطاد من القماش مزركش مصنوع باليد.

الفصل الثالث

انقطعت عن منزل الشريفة حفصة.. شعرت بأن ذلك كان أمراً جازماً تلقيته من النائب، فقد بلغت الحلم وأصبحت رجلاً كما ذكرنى النائب بذلك عدة مرات.

حتى القصر نفسه لم أعد أرتاد أماكن النساء فيه ولا حتى المطابخ، ولم أعد أقوم بأى أعمال خاصة بهن.

لقد اقتصر عملى على مكان مقيل النائب، أعد الماء البارد المبخر وأصلح (المداكى) وأبدل مـاد (المداذئ) وأعـدّ النار (للبـوارى) فى المواقد، وأقوم أثناء المقيل بوضع النار على التبغ وتقديم خدمات كثيرة فى هذا المحيط الضيق.

كان النائب يغدق علىّ بالقات وهو يشعر بأننى أحس بالمهانة لهذا العمل الأخير الذى أقوم به، فهو ليس عملاً يركن به إلى دويدار أو

* * *

رهينة، وإنما هو عمل خاص بالخدم.. إضافة لشعوره هذا، فقد خصص لى مكاناً (أتكىء)فيه فى سفل ديوانه الرحب. وبدأت عادة جديدة معى هى تناول القات.

كنت أجلس فى مقيلى هذا بلذة، وكان يدور حوار شبه مكتوم عن حدث سيقع. كنت ألتقط بعض العبارات المتناثرة والتى كانت توحى لى بأن هنالك شيئاً سيحدث، وكان كلام يدور حول قضية الأحرار والدستور وسيف الإسلام الأمير ولى العهد ووالده الإمام الهرم.

كان النائب أكثر تحفظاً من غيره. وربما، لمركزه المرموق ولكون الحديث يجرى فى مكانه. لكنه، وبعد أن يخرج من كانوا لديه، يستغرق فى تفكير عميق، حتى أثناء قيامى بتنظيف المكان من بقايا أوراق وعيدان القات التى خلفها المريدون وأخذ (المتافل) النحاسية وأكواب الماء الفخارية، وطىّ قضيب المدائع ورمى بقايا رماد (البوارى) كان النائب يظل مستغرقاً ومداعته ما زالت قائمة وأمامه جهاز الراديو الكبير ذو البطارية الكبيرة يقلب شوكته على محطات ربما تسعفه بأخبار يرتاح لها. وقد يستدعى صاحبى الدويدار الحالى المريض لكى ينكب على قدميه وفخذيه يفركهما بحسب العادة.

وكم كنت أود مساعدة صاحبى فى عمله هذا الممل، إشفاقاً منى عليه. لكننى كنت أمقت ذلك العمل الرخيص، وكنت أحتقره ولا يمكن أن أتصور نفسى زقوم به فى أى ظرف من الظروف.

وكنت أعود مع صاحبى المنهك إلى الغرفة وأساعده فى إصلاح فراشه بعد أن كان يساعدنى، وقد قمت فى ليلة بفرك قدميه فصاح بى بعصبية والشرر يتطاير من عينيه، فامتنعت!

وذات ليلة عدت من عملى المعتاد المحدود بموجب أمر النائب فوجدت صاحبى قد نام أو أنه تصنع ذلك وقد أسدل اللحاف على رأسه، واكتشف بأن جميع الصور الملصقة بحيطان الغرفة قد مزقت ورميت على الأرض وإلى خارج الباب، فوجدت أيضاً بأن أشيائى الخاصة وهى قليلة كالفراش ولحافه والصندوق الخشبى الصغير الملون قد ركن بقرب الباب، كأنه يريدنى أن أخرج من لديه ومن غرفته ومن عالمه، وأغادر غرفته هذه التى يعتبرها خاصة به.

كان النور المنبعث من الفانوس القديم المتآكل المهمل خافتاً كالعادة. جلست مثقل النفس برهة، فكرت فى صاحبى هذا المريض الذى كان فى يوم من الأيام دويداراً حالياً، والذى لا أدرى الآن ما الذى حدث معه وعكّر صفو علاقتنا الحميمة.

كان بإمكانه أن يكلمنى بصراحة بأن أغادر غرفته وأبحث عن مكان آخر. ففى القصر وملحقاته متسع من الغرف التى لا حصر لها، وهى غرف بالتأكيد أكثر رحابة من غرفته، وقد خُيِّرت فى يوم من الأيام فى دار الشريفة حفصة بغرفة مستقلة ذات أربع نوافذ وحمام قريب منها، ومفروشة أيضاً! لكننى فضلت البقاء معه لحبى له ولشعورى بأنه يبادلنى المحبة نفسها.

لا أدرى ما الذى طرأ عليه وهو بهذه الحالة من المرض! وقلت لنفسى بعد حوار عنيف بأنّ من غير الوفاء أن أغادر غرفته وهو فى هذه الحالة من المرض، حتى لو كان يريد ذلك!

بعد فترة منه، كان اللحاف المغطى به يكاد أن يخمد أنفاسه وأنا الذى أعرفه دائماً لا يغطى وجهه مهما كان البرد شديداً وقارساً فى الشتاء بالذاتت أو الناموس المزعج فى الصيف.

اقتربت ومددت يدى اليمنى لكى أضعها بهدوء وقد احترت أين أضعها على أى مكان من جسمه! لكننى فضلت أن أناديه أولاً ففعلت لكنه لم يجبنى، كنت أسمع زفيره المكتوم وكنت أعرف بأنه ليس نائماً.

مددت يدى إليكتفه وقلت له:

- ما بك الليلة!

لم يجب، فكررت السؤال وكثفت حركة يدى على كتفه فقال من تحت اللحاف بصوت مبتور:

- أريد أن أنام.

- وهل أيقظتك؟

لم يجب بل مال بجسمه نحو الحائط وسمعت نشيجاً مكبوتاً صادراً منه.

مالكت نفسى ثم سحبت جسمه نحوى لكى أعرف ماذا به، لكنه تمنّع فأصررت وأنزلت يدى من على كتفه إلى وجهه أثناء محاولتى تلك، وهالنى تبللها بدموعه المنهمرة على خديه، فجذبت يدى بسرعة وقد ذهلت تماماً، وكانت ليلة عصيبة.. قلت له:

- أخى الحميم، صديقى الوفى، زميلى الوحيد فى غرفة الانتظار!

لم يجب، لكننى كررت عليه حتى قال:

- دعنى وشأنى.

- هل آخذ أشيائى وأرحل عن رغبة لك؟

- إنت حر.

- لم أعد حراً، منذ عرفت قلعة الرهائن، وقصر مولاك النائب، ودار الشريفة حفصة!

لم يجب، فكررت عليه السؤال ملحاً وقد عزمت على المغادرة إلى أى مكان آخر.

فقال:

- أنت حر، دعنى وشأنى، فأنا مريض.

- مرضك هذا، هو ما يزعجنى.

- لا تهتم بذلك!

وصمتنا لحظة قلت له بعدها:

- هل أبحث لى عن مكان آخر الليلة حتى تروق ويعتدل مزاجك، وتترك هذا التعنت؟!

- لم يعد لدىّ أى ارتياح لتلك الأشكال الممقوتة التى ذكرتها.

تمهلت قليلاً ولم أجبه بسرعة بل تعمدت الإبطاء فى الرد وقد تكالبت علىّ الهواجس، سألته قائلاً:

- أريد أن أعرف قرارك النهائى.

- أنا مريض وأريد أن أرتاح إلى الأبد!

- أرجوك أن تدبّر لك مكاناً آخر، لا أزعجك فيه بمرضى هذا.

- وهل اشتكيت من ذلك؟

- ربما تحملتنى أكثر مما يجب.

- لقد تحملتنى أنت منذ البداية!

- هذا كلام عاطفى.

- لكنه كلام حقيقى وعن صدق.

- أرجوك أن تتركنى وشأنى.

- وأنت بهذه الحالة؟

- نعم، سأجد راحة كبرى إذا تفركت وحيداً فى هذه الغرفة.

- لم يعد هنالك من يزعجنا من النسوة بعد الآن!

- هذا كلام! اقتنعت به أنت والنائب، وهو الكلام نفسه الذى اقتنعت به أنا والنائب منذ سنوات، لكننا مارسنا الأشياء رغم ذلك وحتى الآن، أولم تلاحظ ذلك؟!

- لم ألاحظ!

- أنا أكبر منك سناً!

- لا أدرى.

ـ نعم أكبر منك سناً، وعندما بلغت الحلم، سن الشباب حاولت التخلص. لكنني مع الزسف ورغماً عني ظللت وعملتت وتصرفت حتى الآن كطفل أهبل.

لم يعد هنالك مجال للجدل معه، أخذت أشيائي وخرجت إلى الساحة، وفكرت قليلاً أين أذهب في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

واتجهت تلقائياً إلى نوبة (البورزان)، كان ساهراً خارج نوبته مطلاً على السور الكبير يصفّر بشفتيه ألحان بلادي الشعبية الخاصة بأيام الحصاد.

استقبلني بشوق وترحاب كأنه يستقبل صديقاً حميماً له.

ولا أدري كيف اتجهت إلى مكانه مع العلم بأن الجميع يتحدثون عن سلوكه الانطوائي وعدم قبوله لأي شخص مهما كانت أهميته.

فرش لي مكاناً ممتازاً من غرفة النوبة الدائرية، ولأنه صاحب مزاج متقيد بالنظام والنظافة ودقة التطبيق في ترتيب ذلك المكان، فقد صنعت من مكاني الخاص بي داخل النوبة المستديرة والتي خصصها لي مكاناً أرقى من مكانه الخاص به.

حدثني ذات ليلة وأنا مشغول بحال صاحبي الدويدار عن سيرة حياته وما مر بها، قال لي:

ـ ألم تسمع عن حرب (الانسحاب)؟

ـ سمعت بها، من والدي الذي شارك فيها وكان صبياً مع جدي الذي كان يركب الفرس دائماً.

- هجموا علينا فى أطراف تهامة (الشامية) ببنادقهم (المضلع) الألمانية الصنع، كانوا (وهابيين) و(سعايده)، وكما نحن يمانيون (متوكلين) و(زيود) نحمل البنادق (الصابة) و(الموزر) و(السك الفرنسية)، مع ذخائرنا (المعوضة).

كان والدى يقص علينا تلك الأحداث وبتفاصيلها الدقيقة - قال صديقى البوروزان - :

- انهزمنا من تهامة وزُجَّ بنا فى قارب شارد صغير متجه إلى عدن حيث عدنا بعد الصلح.

واصل حديثه وهو يستعيد أمجاده.

- كنت أضرب على هذا البوروزان بعد أن أتقنت الأداء عليه من معلمنا التركى العجوز الذى بقى مع من بقى من الأتراك بعد هزيمتهم.

– شئ رائع.

ــ يبدو إنك سارح الذهن ! فيم تفكر؟

ـ أربكنى سؤاله المفاجئ فقلت:

- أبدا ! أنا معك.

- لست معى. هنالك شئ يشغل بالك ؟!

- ربما ! وأرجو المعذرة.

- هل هى الشريفة حفصة؟

- ذكرتنى بها الآن.

- إذن ما هو الذى يشغل بالك ويجعلك مذهولا هكذا؟

– صاحبى الدويدار.

- الحالى؟

– نعم.

– مسكين! فهو صاحب قلب طيب لكنه ساذج!

– مريض، وقد اشتد به المرض إلى درجة خطيرة.

- إننى متألم فعلا من أجله. ولكنه لم يكن وفيا عندما طردك من غرفته!

- معذور، وكان الواجب عليك ولكننى ترددت مخافة إحراجك.

* * *

زرت مع صديقى البورزان صاحبى الدويدار الحالى المريض فى غرفته الصغيرة. كان راقدا .. يبدو أنه لم يخرج منذ غادرته .. كان الطعام أمامه كما هو. لم يذق منه شيئا. وكانت رائحة الغرفة عطنة ففتحت النافذة الصغيرة التى كنت آنس إلى بصيص نورها فى أحلك الليالى.

استيقظ وقد شعر بنا. ولم يتكلم شعرت أنه قد أصبح غير قادر حتى على الكلام.

وخرجت مع البورزان من الغرفة وعندى اقتناع بالعودة إليه. فأخذت أشيائى من مكان صديقى البورزان وعدت إلى غرفة صاحبى الدويدار المريض.

رتبت مكانى كالعادة السابقة. ولا أدرى كيف توفرت لدى طاقة هائلة من التحمل والصبر والجلد !

تجاذبت معه أطراف حديث فانفرجت أساريره. وتكلم وكان شيئا لم يحدث واستطعت إرغامه على أكل شئ من الطعام المرصوص إمامه وفركت قدميه الباردتين وأصلحت مرقده. وقدته إلى الحمام لكى يقضى حاجته الحبيسة طيلة غيابى.

حتى عيناه بعد ذلك كانتا تبرقان بالحيوية والنشاط. كان سعيداً بعودتى وكززن الحياة قد عادت إليه رغم مظهره الكبريائى الذى حاول الحفاظ عليه.

مع كل ذلك . ما زالت صورة الشريفة حفصة لا تفارقنى لحظة حتى فى انعزالى مع خيالى وأحلامى. كان صوتها المبحوح يرن فى أذنى. ينادينى بأن أكون رجلا.

كان وقع الحجر المقذوف منها على ظهرى أعاد إلىّ الآلام وخصوصا أنه استقر فى عمودى الفقرى.

كان صوت بكائها الذى تخيلته وهى تدافع عنى عند أخيها النائب يذكى لدى شعلة من هيجان الحب القاسى.

* * *

لكننى مع كل ذلك أوليت صاحبى كل اهتمامى وجهدى برغم عملى المضنى فى ديوان مقيل النائب بعد الظهر والمساء. أصبحت

مقايل النائب قلقة. كأن كل من يرتادها يتوقع دائما حدوث شئ. وسعال صاحبى الدويدار المريض يزداد ليلة إثر أخرى برغم مكوثه فى فراشه وصوت صديقى البورزان أحد أبطال هزيمة «الانسحاب» يعلو بنشيده المنادى للهجوم على الخصوم وبإشارة النصر الذى لم يحدث!

والطبشى العجوز الذى حفرت البغلة (زعفرانة) فى رأسه ثقبًا لا يندمل ما يزال يدندن بألحان (الباله) الشعبية!

وأنا ! وأنا أتذكر (زامل) العساكر اللاصق فى مخيلتى ..

يا دويدار. قد أمك فاقدة لك.

دمعها كالمطر!

تذكرت أمى التى هربت بى من (عكفة) و(سوارى) سيف الإسلام الأمير ولى العهد بين مزارع القصب والذرة خوفاً منخطفى فى تلك الأثناء لأسجن كرهينة، ومع ذلك فقد انتزعت من حضنها بقوة وقسوة لم تعهدهما المسكينة من قبل، وأركبت فوق حصان مقوس الظهر يخص والدى وأسرته إلى المدينة.

***

ذات يوم، لاأدرى كيف قابلتها صدفة! ارتعت وعرتنى رعشة كأنى مصاب بحمى عنيفة! وتصبب العرق من جبينى مدراراً، ونشف ريقى!

حاولت الهرب بحركة متزنة، لكنها قالتت:

ـ سبحان الله! ظننت إنك قد سافرت!

- كنت أنوى ذلك.

- إلى أين؟

- إلى بلادى.

- عجيب، وأنا التى أعرف أنه لا يسمح لرهينة بالسفر إلى أهله إلا بعد أن يحضر بديلاً عنه!

ولم أجب فقالت:

- وانت رهينة مهم! ودويدار خاص بى قبل أن يستولى عليك النائب!

- أمرنى بالبقاء فى معيته.

- وقال لك بأنك قد أصبحت رجلاً، وقد بلغت الحلم!

- لقد قلته أنت من قبل!

- ولقنّك أن تقول هذا؟

ولم أجب، فقالت:

- وتطوّرت من دويدار حالى إلى خدام مطيع! تقوم بغسل (المتافل) وإصلاح (المدائع) وكنس المكان! وربما تقوم بأداء أعمال أخرى!

لم أجب أيضاً، فقالت:

- أهذه ما تعتبره تطوراً فى حياتك؟

شعرت بثقل سخريتها فاندفعت نحو البوابة الرئيسية للقصر وقد مزق أحشائي كلامها الجارح، واحتميت منها ـ كأنني أعتقق بأنها تطاردني ـ بجوار صديقي البورزان، وأنا في حالة من تشنج مكبوت طرأت عليَّ وكنت أخاف أن تنفجر بكتفي وهزني بعنف قائلاً:

ـ ماذا بك، يا أهبل؟!

لم أجبه، فأخذني بقوة لأواجهه مباشرة وقال:

ـ ابن أمك!

تذكرت أمي، وزامل العساكر، «يا دويدار قد أمك فاقدة لك، دمعها كالمطر»، تمالكت أعصابي وأصلحت من وضعي فقال:

ـ هل جرى شيء لصاحبك؟

ـ .. لا.

ـ إذن ما بك؟

ـ لا شيء!

ـ تقول لا شيء! وأنت تبكي كطفل مدلل؟

ـ لم أبك، متى بكيت؟

ـ قسماً بالله إن لم تقل ما بك!

ـ ولم يكمل ولم أجب، ففكر لحظة ثم قال:

ـ أهي الشريفة حفصة مرة أخرى؟!

هززت رأسى، فقال متأنياً:

ـ مسكين يا صديقى الرهينة! فإما أن تموت بحبها أو ترحل به خارجاً!

ـ سأرحل.

ـ ماذا فلعت يا مسكين؟!

ـ لا شىء.

ـ ماذا قالت لك؟

ـ كلام، مجرد كلام.

ـ كلام قاس؟

ـ هززت رأسى.

ـ .. وبأنك أصبحت خادمصا للنائب؟

هززت رأسى.

ـ وبأنك أهبل وجبان ولن تكون رجلاً مطلقاً؟

لم أجبه فقال بلطف حنون:

ـ هل تحبها حقاً؟!

وتمهلت قليلاً، فقال:

ـ كارثة ومصيبة حلت بك!

أجبته وقد وانتنى الشجاعة قائلاً:

- وهل الحب كارثة ومصيبة؟

- نعم، كارثة ومصيبة وخصوصاً إذا كان متبادلاً مع الشريفة حفصة!!

* * *

لم أنم جيداً بجوار صاحبى الدويدار المريض الذى أصلحت له كل ما يحتاجه.

ولأننى شربت لكى أنسى الشريفة حفصة، فقد سهرت حتى الصباح، لم تفارقنى لحظة فى خيالى.. كيف تكون فى هذه الساعة؟ هل هى مستلقية على فراشها الناعم والأنوثة المجسدة فى جسمها الريان تبرز مفاتنه من خلال ثيابها الشفافة اللاصقة بجسمها؟! وصوتها الأجش كفحيح أفعى تتلوى يطرق سمعى!

ما زلت أتغافل هجوع صاحبى من سعاله الحاد وأرتشف كأساً إثر أخرى وسيجارة من سجائره المعروفة!

أصبحت فى عالم اخر! قررتت فيه بغير إرادة الذهاب إلى منزل الشريفة حفصة.

ارتشفت كأساً أخرى، وخرجت فعلاً إلى الساحة متجهاً نحو باب دارها، طرقته ففتحت لى إحدى الخادمات، ولأنها عرفتنى فقد دخلتت وصعدت الدرجات نحو مكان الشريفة حفصة.

وقفت برهة متردداً ماذا زقول لها فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل .

كانت قد شعرت بطارق يدقّ باب دارها فتأهبت لتعرف من هو الطارق فى مثل هذه الساعة المتأخرة.

عدت أدراجى مسرعاً لكنى فوجئت بصوتها المعروف وهى تسأل خادمتها عن هوية الطارق وقد أجابتها الخادمة بأنه الرهينة.

ولم أشعر إلا بأنفاسها تلثم رقبتى وهى تقول:

- خطوة عزيز، يا خادم مولانا النائب؟!

ولم أجبها وقد ندمت لمغامرتى هذه السخيفة، فقالت وقد وقفت أمام وجهى مباشرة:

- ماذا يريد جناب خادم مولاى النائب منى؟

- لا شىء.

كان لابد أن أنطق كلمة.. فقالت بتعجب مفتعل:

- لا شىء؟!

- نعم.

- وتعليل وجودك الآن فى منزلى؟

- كنت أبحث عن شىء تركته هنا، وربما كنت مخطئاً فى ظنى فهو فى مكان آخر.

- عجيب، وهل هو شىء مهمّ لديك؟!

- كان مهماً قبل الآن.

ـ عجيب، إذا لم يكن مهماً.. كنت ستنتظر إلى الصباح وتبحث عنه مع الخادمات.

ـ أرجو المعذرة سيدتى لإزعاجك،وعلى كل حال لم يحدث شىء يعكر صفو نومك.

ـ مؤدب، مؤدب جداً. لكن الذى تبحث عنه ألا يكون مع إحدى خادماتى؟

ـ لا.

ـ هل تروقك إحداهن؟

ووثبت غاضباً لكى أخرج سريعاً، لكنها أمسكت بكتفى وجذبتنى نحوها فالتصق جسمى بجسمها وشعرت بأنفاسها تتوالى لاهثة، وقبلتنى حتى كدت أن يغمى علىّ ومرقت أمامى وقد جذبتنى بيدها نحو مكانها المفضل.

وأقفلت الباب ووضعت يدها حول عنقى وتلمست يداى جسمها الرخو الذى كنت أحلم به منذ زمان، وهجعت معها فى لذة، صاحت لها ديوك الفجر.

* * *

نهضت من منامى فزعاً وصديقى المريض يصيح بى متسائلاً عما جرى لى، وكيف حالى. اتجهت إلى النافذة الصغيرة لكى أرى أى بصيص من نور، كان ضوء الفجر قد انتشر فقال:

- ماذا بك، هل أنت مريض؟

- لا، أبداً، كيف حالك أنت؟

- أنا كالعادة، لكننى قلقت عليك!

- هل حدث لى شىء؟

كنت فى الأيام الأخيرة استيقظ متأخراً لأن عملى كان قد تحدد بعد ظهر كل يوم فى مقيل النائب وحتى منتصف الليل.

وكان صاحبى الدويدار الحالى قد تدهوت صحته إلى درجة أصبح فيها عبارة عن هيكل عظمى، وما بقى من جلده فهو شاحب أصفر اللون، وكان من النادر خروجه من غرفته، و كنت أقوم بتقديم جميع وجباته التى لا يمسّ منها إلا القليل النادر تحت إلحاحى الشديد، كان يبدو كئيباً متألماً، زاد من ذلك شعوره بعدم الرضا لعدم اهتمام سكان القصر بزيارته. قال لى ذات يوم:

- لم يزرنى أحد!

أجبته معتذراً:

- كلهم مشغولين وحالتك ليست سيئة.

وخرجت منه نهدة ثم صمت فقلت:

- ومع ذلك فقد زارك الكثيرون فى الأيام الخطرة من مرضك، لم تعد تتذكر ذلك.

تقيدت بقرار النائب بأن أكون بمعيته دائماً، أعدّ له المفرج للمقيل، وقد امتنعت عن زيارة الأماكن التى يتواجد فيها عادة نساء قصره.

كم يغمرنى الحنين كلما تكورت بجوار تلك النافذة الصغيرة المنفية، وتهتز عصفورة صغيرة رمادية اللون فوق مزراب النافذة تذكرنى بأنك الملجأ والملاذ البارد الحنون:

ـ منذ فترة لم يعد يطرق أذنى ذلك الرنين الساحر المبحوح الصادر منك، كم هو رائع! فى بلادى التى حكيت لك عنها العجاب، استضعفونى، واعتدوا علىّ، ومسخونى رهينة ودويداراً فى بلاطك وخادماً فى ديوان مقيل أخيك النائب المحترم، ومع ذلك لكأن صوتك الرنان ينزلق برفق فيحول الصدى القاسى إلى موسيقى ذات نغم (حالى).

* * *

أدرت الاسطوانة فى (صندوق الطرب) المصنوع من خشب الأبنوس والذى لا يستخدم إلا بتستر ملحوظ، ليصدح ببعض أغانى المطربين اليمنيين أمثال (العنترى) و(الماس) و(القطبى)، فعلت ذلك أثناء قيامى بترتيب مكان (مقيل) النائب.

كنت أضحك على نفسى حين أقف مشدوهاً بذلك الغناء المنبعث من ذلك الصندوق الخشبى المركب عليه اسطوانة فحمية اللون تشبه قرصاً يصدح منها صوت المغنى مع عزف العود المميز.

كم كان يذهب بخيالى آسراً هذا الإبداع، ليس فى الغناء والأداء ولكن طريقة التوصيل! صندوق الطرب الخشبى والاسطوانة الفحمية!

. كنت أعد ذلك معجزة! وأنا لاأسمع إلا صوت بقرتنا الغالية فى سفل الدار تطلب الغذاء بصعوبة بالغة!

عندما أكمل عملى فى (ديوان) النائب أقفل ذلك الصندوق لأننى سزسمعه فى نهاية (المقيل) وقد أسمع غناء وعزفاً على العود بل ورقصاً مصاحباً له من أشخاص يجيدون ذلك، وما زكثرهم!

كم يغمرنى الحنين كلما تكورت بجانب النافذة الصغيرة المنفية فى غرفة صاحبى الدويدار (الحالى)، المريض:

- وقد تهدل يمامة أو يزقزق عصفور ليذكرنى بأنك الملجأ والملاذ البارد الحنون، إيه.. شريفتى الحبيبة ذاتت الصوت المبحوح، منذ فترة لم يطرق أذنى ذلك الرنين الصادر منك؟.. كم هو رائع.. فى بلادى التى حكيت لك عنها العجاب١ استضعفونى، واعتدوا علىّ ومسخونى رهينة، ودويداراً فى بلاطك، لكأن صوتك الرنان ينزلق فى رفق، يحول الصدى إلى موسيقى ذات إيقاع حالم و(حالى).

* * *

كم تاقت نفسى لرؤية الشريفة حفصة ولو عن بعد. كنت أختلس من الوقت بعض لحظات لكى أقف وعن بعد من باب دارها عسى أن أشاهدها تخرج، أو أقف أتطلع إلى نوافذ غرفتها عسى أيضاً أن ألمح ولو مجرد طيف لجسمها!

وكنت أتردد على الأماكن التى ربما تكون متواجدة فيها عادة، حذراً، وأتصنع أعذاراً واهية إذا سئلت عن سبب تواجدى فى تلك الأماكن.

كدت يوماً أن أغامر بزيارة لمنزل الشاعر الوسيم وهو الأبعد مسافة عن المدينة وأكثرها أخطاراً لأى مغامرة، عسى أن أجدها داخلة لديه أو خارجة من لديه، لكننى فشلت.

* * *

لم أعرف في حياتى أننى مارست طقوس الصلاة باختيار حر إلا منذ عرفت الشريفة حفصة وأحببتها. كان المسجد صغيراً بجوار البوابة، تعلوه قبة بيضاء من القضاض والنورة.. كان مسجداً قديماً جداً، أعدّ كضريح لأحد الأولياء القدماء المعتقدين ببركاتهم.

وكان يشرف على إقامته صاحبنا الطبشى العجوز التى فدغت رأسه البغلة (الزعفرانة)!

ولقرب المسجد من دار النائب فقد تكلف شخصياً وعلى نفقته الخاصة بإسراجه ليلاً بالمصباح الزيتى الذى يتصاعد دخانه صدئاً ليخفى سقف المسجد البيضاوى اللون.

وقد اعتمد النائب لذلك (الطبشى) العجوز الذى فدغت البغلة (الزعفرانة) رأسه (قدحاً) من الحبوب كل شهر مقابل إقامته للمجسد.

كنت أتهجّد فيه بعشرات الركعات عندما تتاح لى الفرصة فى أى موقت صلاة، كنت أصلى سائلاً الله أن يشفينى من حب الشريفة حفصة، وأن يلهم قلبى النسيان لها.

وكم كنت أطيل السجود بخشوع، وأخرج من المسجد بعد ذلك وعندى أمل فى رحابة الله لدعائى الصادق الخالص.

كنت أخجل معظم الأحيان من تصرفى هذا. ومع ذلك فكل عملى هذا مرّ دون جدوى، فما إن أدخل راجعاً من بوابة القصر حتى أنظر رغماً إلى دارها، بل وأجلس أمامه لحظات عسى أن أرى طيفها!

* * *

تركت الصلاة فلم تبلغنى مأربى.. وعدت كما كنت أحاول أن أجرب أى طريقة أخرى أنساها بها، يا إلهى ألم تخلق سواها؟

كنت أكب على عملى فى مقيل النائب بجهد زائد، وأعتنى بصاحبى المريض معظم الوقت وأجلس مع البورزان أسمع منه حكاياته عن حرب (الانسحاب) التى هزم فيها، وأنصت لزامل العسكر المعتاد، ومع كل ذلك لم أستطع نسيانها!

كنتُ أتذكر تعبيرها لى بأننى تحولت من دويدار إلى خادم، أغسل (المتافل) وألقط الجمر (للمدائع) وأكنس مكان المقيل فى وقت متأخر من الليل.

* * *

عدت إلى غرفة صاحبى ذات ليلةَ متأخراً، ارتميت بجوار النافذة الصغيرة، ينهشنى الغم والكدر والضيق، الضيق الحقيقى من الحياة.

وسمعت سعاله مصحوباً بأنين جديد، تفقدته، كان هامداً سوى حركات متباطئة من رأسه.. جسمه بارد ولونه شاحب.

* * *

قال الطبيب الأجنبى الوحيد فى المدينة وربما فى البلاد كلها بعربيته المكسرة:

ـ ما فيش خوف، واحد حبة بع د أكل، رن شاء الله تمام، بعدين، تأتى مرة يجى عندى، لازم أشوفه!

لملمت صاحبى من أمام الطبيب الذى هرع مسرعاً يتفقد أرانبه فى سفل الدار.. ذكّرتنى رائحة مخلفات الأرانب بدارى فى القرية، تنشقت بشوق تلك الرائحة فهى شبيهة برائحة ثورنا وبقرتنا وغنمنا!

حاولت مداعبة صاحبى بترديد كلام الطبيب المكسر عربياً فابتسم مجاملاً لى فقط.

كانت حالته سيئة ومن يوم إلى يوم تسوء أكثر، وحبة العلاج التى قررها الطبيب لم تجد نفعاً.

* * *

أعدته إلى الطبيب عدة مرات فسمعت الكلام المكسر نفسه وجبة العلاج نفسها التى لا يملك سواها دواء للمريض.

حاولت ذات صباح أن أشدو وأنا منفرد بأغنية من قريتى فلم أستطع، وحاولت أيضاً أن أصفر بفمى بلحنها فتعثرت.

لا أدرى ما الذى جعلنى أفقد حتى مجرد الإحساس بالسعادة لأستقبل يوماً جديداً آخر!

* * *

كان مقيل اليوم متوتراً، فالنائب ظل خارجاً داخلاً وحالته ليست مستقرة، بل وحالة الضيوف المعتادين فى المقيل أيضاً!

أدركت بأن هنالك شيئاً، ربما حدث، أو هو فى طريقه للحدوث، قد أزعج الجميع!

قال أحد المقرّبين للنائب وقد تأكد من معرفته التامة لوجوه الموجودين:

- ما الذى حدث فى صنعاء؟

- قتل الإمام.

- ومن قتله؟!

- حزب الأحرار الدستوريين.

واستمرت فترة صمت:

- هل غادر (السيف) المدينة؟

- نعم.

- وكيف غادرها؟

- لا أعلم.

- ألم يترك لك خبراً؟

- لا يثق بأحد!

ـ ذهلت لهذا الحوار المبتادل بين النائب وقريبه والذى اتسع مجاله بين المجموعة.

وغادر الضيوف مقيلهم مبكرين على غير عادتهم، واختفى النائب فى أحشاء قصره وملحقاته.. وعدت مبكراً إلى صاحبى حيث أخبرته بهذه الأحداث، فوثب من مرقده فجأة وهو يسألنى:

ـ هل قتل الإمام؟

ـ هذا ما سمعته.

وارتمى على ظهره وصوته يخفت:

هل أنت متأكد من ذلك؟

هذا ما سمعته.

ونهض مرة أخرى.

ـ ولى العهد.، السيف، أين هو؟

ـ غادر المدينة.

وارتمى مرة أخرى على ظهره قائلاً كمن يخاطب نفسه:

ـ لقد فشلوا، كان عليهم بسيف الإسلام قبل الإمام.

ـ ماذا قلت؟!

ـ لاشيء!

ـ هل أنت بخير؟

ـ كنت.

* * *

أهذا الدويدار، صاحبى، أكثر إدراكاً للأوضاع منى، وهو المريض، الآن، وربما على فراش الموت؟!

عجبت! ولمت نفسى، وأنا صاحب قضية ويهمنى الأمر أكثر منه!

ارتميت على الفراش فى مكانى المعتاد، والهواجس تتكالب علىّ، فقد قتل الإمام الهرم فى صنعاء، وسيفه ولى عهده قد فرّ من المدينة.

وأسرتى؟ بعضها مشرد والآخرون فى السجون أو المهجر، وأنا رهينة، ودويدار، وخدام مؤخراً، لأن والدى يعارض سياسة الإمام وسيوفه.

لقد قتل الإمام وهذا هوالمهم، ويأيد يمانية، وهذا هو الأهم. أكيد ذلك، وأكيد ما حدث.

وفرّ ولى العهد السيف المسلط على رقابنا.. خيبة أمل وغمّ وخذلان، ولكن لا يهم!

* * *

فى سجل تاريخ شعبنا اليمانى، أنه قادر على تنفيذ كل رغبة تجتاح مشاعره وهو ينفذها بالفعل ولو بطريقة عشوائية، ربما يقال إنها ليست ميزة، ولكننى أؤكد أنها ميزة، فباستطاعته إنهاء الظالم ولو بصبر الجمال وحقدها!

* * *

هيأت مكان المقيل مبكراً مما استغرب له النائب! ولم أظهر له أى شىء عن مشاعرى لما حدث، ولا هو سأل أو تكلم عن ذلك! لئيم

بطبعه! وخبيث! وكنت قد اكتشفت من خلال ممارستى للعمل معه أنه يظهر للآخرين غير ما يبطن، تعلمت ذلك منه وطبقته فى معاملتى معه بالرغم من استهجانى لهذا الأسلوب.

* * *

ونشطت لكى أسمع جديداً فى الأمر، لكنهم بخلوا هذا اليوم بأن يتفوهوا بأى حديث مهم، فكان مقيلاً صامتاً توجست من خلاله مخاوف وذعراً وقلقاً.

لابد أن شيئاً قد حدث؟ هذا ما استنتجه، وجوه القوم تعكس القلق نفسه الذى أعيشه!

* * *

بكرت على غير عادتى.. وتجولت فى أرجاء القصر وملحقاته ما شاء لى التجوال، حتى دار الشريفة حفصة، مررت بها.

يا ترى هل هى مهتمة بهذه الأحداث، أم كل همّها هو نفسها والشاعر، وربما أنا؟!

* * *

نوافذ على قصر النائب مواطنو منطقته المحيطة بالمدينة، معظمهم من رعاياه وشركائه فى الأراضى وقلة من الأنصار بعضهم ببنادق يحملونها على أكتافهم بملل والبعض الآخر بعصى وفؤوس يتوكأون بها، وكانوا (يزملون) أمام بوابة القصر:

- يا سجرة يا مورقة يا محدقة..

.... يسقيك ربى بالمطر!

أشكال وألوان من البشر غير منسقة ولا منتظمة، وأفواه تنعق بكلام ليس فى محله امتعض له النائب وهو الذى كان قد أرسل لهم الرسل (القاصدة) لكى يحضروا ويشرفوه فى مثل هذه الأحداث والأزمات، وهذه المواقف التى يجب فيها الحزم والصرامة وإظهار القوة بكثرة الأتباع النافعين.

ومع ذلك فقد مرّت الأمور كما يهوى، فكان تعليل الناس هو بأن النائب سيحسم الأمور لصالحه، أو لصالح السيف ولى العهد، أو لصالح الأحرار، وقد استغل النائب هذه التآويل المتنوعة وتركها تسرى وتشيع، وارتاح لها كثيراً!

* * *

قلت لصاحبى المريض كل ذلك فقال:

ـ النائب؟ ملكى أكثر من الملك!

ـ كم أنا غبى!

ـ أنت طفل!

ـ وصفونى قبلك بهذه الصفة!

ـ أتقصد الشريفة حفصة!

ـ والبورزان أيضاً!

وسعل فجأة سعالاً حاداً لم يهدأ منه إلا عندما ضممته إلى صدرى، فقال بصوت خافت:

- البورزان؟! ليس لديه سوى قصة (حرب الانسحاب) التى هزم فيها، وهى حكاية كبيضة الديك!

كانت إجابة بعيدة عن القصد، وربما تعمّد صاحبى المريض ذلك! لكننى قلت:

- لم أقصد ما طرق ذهنك من وهم!

- على كل حال، ستعرف ذلك مستقبلاً!

لم أحاول الإجابة عليه بأن البورزان قد قال لى ذلك من قبل.. وشعرت بحرجه فرقدنا هامدين مع بصيص من نور من كوة النافذة الصغيرةِ، وسعاله الحاد يقلقنى ولا يهدأ إلا أن أضمّه إلى صدرى كى يسترد نفسه.

* * *

منذ فترة لم يطرق أذنى ذلك الرنين الساحر الصادر عنها، كم هو رائع! فى بلادى التى حكيت لها عنها العجاب، استضعفونى واعتدوا على أسرتى، وصادروا كل شيء مسخونى إلى رهينة ودويدار ثم خادم، فى بلاطها وبلاط أخيها النائب!

لكأن صوتها الرنان ينزلق الآن فى رفق ويحول الصدى إلى موسيقى ذات أنغام حالمة!

* * *

اعترضت طريقى فى فناء القصر بجوار الفسقية. كنت خارجاً لتوى من مكان مقيل النائب بعد أن قمت بإعداده حسب العادة بعد رحيل آخر مقيل فيه.

قالت بدلال:

- هيه! يا سبحان الله! كأننا لا نعرف بعضنا!

أخفيت ارتباكى ولم أجبها، لكنها اقتربت منى، وأمسكت بذراعى قائلة:

- أوبه (خذ بالك)! أنا الشريفة حفصة!

- لم أنكر ذلك!

- وأنت رهينة!

- .. ودويدار.

- ... «حالى»!

- وماذا؟

- وخادم سيدى النائب! الذى يقوم

- بغسل الأوانى القذرة.. و و و!

- أو تنكر ذلك؟

- معاذ الله!

- حسبت أنك ستنكر!

لا أدرى كيف واتتنى الشجاعة لكى أقف أمامها فى ثبات تام واعتزاز بالنفس لم أعهدهما من قبل مما جعلنى أتخطاها ماشياً إلى الإمام، نحو بوابة القصر، فقالت:

- إلى أين ذاهب؟

- لدىّ عمل.

- هكذا!

- ماذا تريدين؟

- أن أراك!

- بهذه البساطة!

وكشرت كعهدها دائماً، وبصوتها المبحوح المحبّب إلى نفسى قالت:

- وتتركنى لوحدى؟!

ونظرت حولى متصنعاً الاهتمام، كأننى وإياها فى غابة موحشة وهى تخاف الوحوش الكاسرة!

وقلت:

- أنت فى دارك!

- نعم.

صمتت قليلاً، كنت أعرف أنها أقوى منى فى مجال السخرية بالآخرين فحاولت استثارتها:

- لا يهمك إلاّ ذاتك الخاصة.

- ومن أحبه.

- كلام!

ـ هل تتذكر ذلك؟

ـ نعم.

ـ وتقول هذا بإصرار صارم؟

لم أجبها، فتمالكت أعصابها وأخذت بيدي بعنف إلى ركن في الساحة ثم أجلستني بجوارها فجلست وقالت بصوت لم أعهده فيها من قبل، صوت مشوب بالخذلان والانهزام:

ـ أريدك أن تنقذني.

لا أدرى كيف صدمني سؤالها الحزين الجادّ والذى هوت به على مسامعى، كان صوتاً ينم عن حالة ضعف لم أعهده فيها من قبل.

فقلت ملاطفاً:

ـ ومن ينقذني أنا أولاً، وينقذ هذا البلد، أيضاً!

ـ أنا ربة إبلي وللبيت رب يحميه.

ـ لم أفهم!

ـ هه!

ـ نعم؟

ـ ألم تقرأ حتى كتب التاريخ؟

ـ كتب التاريخ؟ لم أقرأ صفحة واحدة ! كان والدى يقرأ هذه الكتب دائماً !

ضحكت . وقد كادت من قبل أن تذرف الدموع الغزيرة ثم ضمتنى الى صدرها مرحة .. فاستسلمت برأسى بين نهديها الناضجين بألانوثة والمحبة والشهوة .

أزاحتنى برفق قائلة :

هل تنقذنى مما أنا فيه ؟

وابتسمت مرة أخرى ٠ وقد هالنى طلبها المفاجىء وبعد أن تريثت ممعنا فى طلبها هذا ، أجبت بعد قليل :

- ممَّ أنقذك ؟

- من حياتى هذه.

- كان ردّها واضحاً وسريعاً فقلت متفلسفاً بحِكَم الريف:

- من هو فى الوادى، يقول ليتنى فى الجبل! ومن هو فى الجبل يقول ليتنى فى الوادى!

- حِكَم ريفية. هبلاء!

- حكم مأثورة وصحيحة.

صمتت برهة أتاحت لى فرصة للتأمل والتبصر فقالت:

- أنا وأنت فى مكان واحد حسبته أنت جبلاً أو وادياً.

- فرق كبير بينى وبينك، كالفرق بين الجبل والوادى!

- أنا أخت النائب! وأنت دويدار! رهينة! و.. و.. و..؟!

- هذه نقطة!!

- والأخرى؟

- لا داعى للاسترسال فى حديث لا فائدة منه!

وثبت غاضبة واتجهت نحو دارها.

توهجت المدينة والقرى المحيطة بها فى الجبال والسهول بأضواء هائلة على أسطح المنازل تدلّ على وقوع حدث هام.

* * *

انتصر الإمام الجديد، السيف، الأمير، ولى العهد السابق.. على الدستوريين، الأحرار، الثوريين.

* * *

وعلت دار النائب وملحقاته - برغم تخمينات العامة غير الموفقة - مشاعل النصر المعجونة من رماد وكاز.

كنت قد رفضت بشدة أن أعجن الدماء بالكاز وأشعله رمزاً لانتصار الإمام الجديد، ولكن غيرى من المتطوعين قاموا بالمهمة.

* * *

وهمدت متألماً بجوار صاحبى المريض، كان يئنّ بفحيح مؤلم!

توجّهت نحو النافذة الصغيرة وأضواء المشاعل تتلألأ من على سطح كل منزل وتغمر غرفتنا ذات الكوة الصغيرة بالنور المنقلق الأصفر الباهت.

عاد السيف، الإمام الجديد وقد انتصر. لابد أن والدى أحد ضحاياه، والذين بترت أعناقهم فى مدينة (حجة). وقد عاد السيف ولى العهد الإمام الجديد بعد ذلك منتصراً بعد أن أباح (صنعاء) للنهب والسلب والقتل والدمار.

* * *

رقد صاحبى الدويدار الحالى، ورقدت معه رقدته الأخيرة! ميتاً كان.. وهامداً، بارد الجسم، وبشكل أوحشنى!

كنت قد تمالكت زعصابى فلم زنهر لموته. كنت من قبل أتوقع أن أصاب بالجنون إذا ما مات صاحبى، لكنى تقبلت الأمر الواقع بانفعالات صامتة وهادئة.

احتضنته، وغسلته بنفسى وهو عار شبه هيكل عظمى بجلده الباهت اللون الذى تبرز كل نتوءات العظام من خلاله. وكفّنته بكفن أبيض شراه البورزان، وعطرته بروائح تطوّعت بها الشريفة حفصة وكم كانت ثمينة لديها وتحتفظ بها لمناسبات أخرى، بين طيات كفنه (مشاقر) من الريحان والزهور الشذيّة.

بحثت عن البورزان عسى أن يفتح عينىّ لينهمر منهما الدمع، لكنه كان مكروباً، فاراً مع عقدته هزيمة (الانسحاب)! وربما زاده فشل هذه الأحداث انهزاماً فهرب!

كم كنت أود أن يكون موجوداً ـ وخصوصاً أنه شارك بشراء الكفن ـ ليشاركنى متاعبى وهمومى أو يفرج عنها قليلاً بقصه عن حرب الانسحاب!

أما الشريفة حفصة، التى ترددت كثيراً لأرتمى بهمومى بين أحضانها، فقد شاركت بالحضور وعلاها الحزن وهى تشمّ عطوراتها الخاصة الثمينة تفوح من نعش الفقيد .. حضر أيضاً الطبشى العجوز المفدوغ الرأس.

كنا هؤلاء فقط أهم الشخصيات فى جنازة الفقيد الراحل، ومعظم نساء القصر وملحقاته ممن عشن معه فى مغامراتهن بتفرجن من بعيد!

جنازة صغيرة سارت بنعش صاحبى الخشبى المحمول على الأكتاف إلى مقبرة المدينة المزدوجة بجنائز كثيرة، مصحوبة بأهازيج وتراتيل الموت الشاحبة..

لا إله إلاّ الله، لا إله إلاّ الله..
لا إله إلاّ الله.. محمد رسول الله..

*** .

يا دويدار، قد أمك فاقدة لك
دمعها كالمطر..
يا رهينة، قد أمك فاقدة لك
دمعها كالمطر..

***

يا لله رِضاك، يالله رضاك، يا لله رضاك..
وارض علينا برضاك، يا لله رضاك..
واحنا طلبناك عظيم الشأن..
يا من تفتح لنا أبوابه!

طغت على مسامعى كل تلك الأهازيج الماضية وأنا أزاحم. كان علىّ أن أشق بنعش صاحبى الراحل باب المدينة الضيق إلى مقبرتها العامرة. وطغت أكثر فأكثر (زوامل) وأهازيج جند الإمام الجديد المنتصر:

يا وادى (الحوبان)[1] توسع..

لجيش سيدى والمدافع..

ثم علا زعيق الجند:

سادتى أنتم نجوم الأرض دايم..

من سعادتكم نزلنا للتهايم..

نرضى الله والإمام

* * *

كان الطبشى العجوز قد أعدّ قبراً صغيراً، كنت فى المقدمة وعنقى يكاد ينكسر برغم خفة النعش ومن يرقد فيه. ولكن استمرارى فى حمل النعش من القصر إلى المقبرة لقلة المستأجرين والطالبين للثواب أرهقنى كثيراً. وقد انحنيت تحت مقدمة النعش. ورغم تبرع بعض المارة لنيل الزجر والصواب، لم يعفنى ذلك من حمل المقدمة، وإن كان قد ساعدنى على أن يظل النعش مرفوعاً إلى الأمام والجنازة مستمرة.

كان العرق يتصبب منى بغزارة، ألهبت عينى.

ووضعنا النعش أمام القبر الصغير لنتلو عليه سورة (يس) من القرآن الكريم كما هى العادة.

لمحت الشريفة حفصة مع بعض نساء القصر وجيرانه جالسات فوق قبور مقضضة. لم أحاول إعادة النظر إليها.. ولا أدرى كيف عرفتها تلقائياً مع العلم بأنها مع النسوة الأخريات يلبسن (الشراشف) السوداء نفسها!

وأهلنا على القبر ومن بداخله التراب. ونُصب حجر فوق القبر يدل على أن ساكنه ذكر وليس أنثى!

وقمت بنزع شجرة عشب أخضر غرستها فوق القبر وصببت عليها الماء!

أمسكت بكتفى الشريفة حفصة وهى تقول:

- عظّم الله لك الأجر.

لم أكن أعرف ماذا يردّ بمثل هذه المناسبة. كنت أذكر فقط أننا نخّرج من القرية فى زى جنازة لنصيح بالترانيم الجنائزية، ثم نقرأ (يس) والفاتحة فوق القبر!

قالت:

- هل نعود؟

- أريد أن أجلس قليلاً هنا.

- لماذا؟

- هكذا أردت.

- لا تغضب، كلنا حزانى عليه.

- ليس مثلى.

- لا تكن مبالغاً فى عواطفك!

- لا وجود للعاطفة فى هذا القصر وملحقاته!

ابتسمت، وقالت بصوت هادىء:

- لا تكن فظاً، وجلفاً، ومتطرفاً.

- ماذا تقصدين؟

قالت بهدوء أيضاً وهى تربت كتفى:

- لا أقصد شيئاً، كل ما أقصده هو أن نعود إلى الدار لكى نستريح، وننسى.

- ماذا ننسى؟

وفقدت هدوءها، وقد علا صوتها:

- ننسى هذا! هذا الذى رحل؟ وما فات مات!

- لن أنساه.

- لن ننساه جميعاً، ولكن ما المبرر لبقائنا وحدنا فى المقبرة؟وتلفّت حولى، لم أجد أحداً سواها! وافقة أمامى وصمت المقبرة يخيم ويطغى على حـوارنا المتـبـادل، ومع ذلك جلست هى على حـجـر وجلست بجوارها.

كنت أعرف أننا لن نصل إلى حل معاً!

كنت أدبر حالى فى قضية فكرت بها منذ أسرجت مشاعل النصر للإمام الجديد!

وهى؟ لا أدرى بماذا تفكر! قلت لها بأننى لن أغادر المقبرة إلاّ عندما أريد!

فقالت:

ـ وقت الغداء قد أزف، والنائب ربما يحتاج إليك؟!

وتفوهّت على النائب وعلى الجميع بألفاظ نابية وجارحة لكنها تمالكت أعصابها وقالت:

ـ هدىء من غضبك:

ـ لست غاضباً.

ـ أو متألم أنت؟

ـ ربما!

* * *

ومر الوقت وكاد المساء أن يهجم علينا.. قالت:

ـ ألديك فكرة ما؟

كان الصمت يطبق على كل أرجاء المقبرة، والأصيل يكاد ينتهى بشمسه الحالمة المؤثرة المحببة إلى نفسى، ليت حياتنا كلها أصيل دائم

نحلم فيه بمرح الحشاشين وخيال وطموحات السكارى وبحرارة توقد أفكار(المقيلى) بالقات!

أجبتها:

ـ نعم.

ـ الهروب؟

ـ نعم.

ـ لا يمكن.

ـ وما المانع؟

صمتت لحظة ثم قالت بتحدّق سافر وجادّ:

ـ لن أتركك.

ـ هذه المرة سأفلت منك.

ـ لن تستطيع.

ـ تأملتها قليلاً ثم قالت ساخرة:

ـ هذا منك مجرد طموح لا تقوى على تنفيذه!

ـ بل تصميم.

ـ سأضطر لرميك بالحجارة حتى أدميك.

ـ حتى ولو بالقنابل.

* * *

عاد الصمت بيننا مع انتهاء الأصيل وإطباق العابس وسكون المقبرة الموحشة.. فقالت متسائلة:

- إلى أين ستذهب؟

- إلى الجحيم.

- أسألك بهدوء، فلماذا تجيب بغضب؟

- هذا طبعي - ليس هذا طبعك إنت حالى دائماً!

- ليس ذلك قبل هذا اليوم.

وعاد الصمت.

اقتربت منى أكثر، أكثر من أى يوم سابق، وأحسست بجسمها المكتنز بكل أنوثة العالم يطوينى بحرارته. كان فمها العذب يتكلم أمام وجهى مباشرة!

عيناها مركزتان على عينى اللتين هربت منهما بعيداً!

لم أستطع أن أقابلهما وجهاً لوجه، أن أتكيف حتى بمجرد الوضع معها، لم أستسغ ذلكِ، ربما رعباً ورهبة!

* * *

قالت وقد مضى الوقت إلى الظلام الدامس وهى تهز قدمى تريد أن أواجهها وجهاً لوجه، وبصوت جاد وحازم:

- خذنى معك.

- إلى الجحيم.

- أى جحيم؟

- الذى ستذهب إليه.

ارتعت لقولها، كانت جادة، وحازمة وبصوتها المبحوح المحبَّب إلى قلبى، قلت بترو وبعقل:

- سيدتى.

وقاطعتنى بنرفزة:

- لا تخاطبنى هكذا!

- عزيزتى!

- كن رجلاً وحدد موقفك!

- أى موقف تريدين منى تحديده؟

هل تحبنى؟

- نعم.

هل تؤمن أو تثق بأننى أحبك؟

- .. ربما يخامرنى الشك فى ذلك!

- قلت لك كن رجلاً!

- سمعت منك هذا من قبل مجرد نزوة كلام!

- ليس كلاماً فارغاً الآن.

- بل هو مجرد كلام! أعرف من تحبين، وما هو طموحك!

- عدت إلى الطموح مرة أخرى!

- حقيقة .. لامناص منها!

- الحقيقة أنك لا تفهم!

- والحقيقة أنك تطمحين ولا تحبين!

تمالكت أعصابها قليلاً ثم قالت:

- قلت لك خذنى معك.

- كلام فارغ!

- أنت جبان.

- فى نظرك.

وتمالكت أعصابها وتظاهرت بأنها تصلح من شأنها واستدارت نحوى قائلة:

- لن أتركك.

- ستتركينى كرهاً عنك!

ووثبت قائمة حيث أخذت حجراً من الأرض لتقذفنى به، لكننى كنت قد أطلقت لساقى العنان، فابتعدت وانهالت خلفى الحجارة المقذوفة منها، لم أتوقف برغم إشفاقى عليها.. وعلا صياحها بصوتها المبحوح الذى أحبه، يطرق مسامعى، وتلقفتنى ظلمات الجبال المطلة على

الوادى الموحش المنحدر إلى المستقبل المجهول، وأنا أتوقع صوتها أو حجراً مقذوفاً منها سيقع على ظهرى.. لكننى كنت قد قطعت مسافة كافية فى طريق جديد مؤد إلى المستقبل، مخلفاً ورائى صوتها المبحوح المحبب إلى قلبى، وذكرياتى مع صاحبى المرحوم والبورزان والطبشى الذى فدغت البغلة رأسه، وزملاءه الجند المنشدين:

يا رهينة قد أمك فاقدة لك

دمعها كالمطر!!

حواشى الفصل الثالث

(١) واد مشهور فى اليمن.

زيد مطيع دمّاج

يكتب زيد مطيع دمّاج كما يرى أو كما يتذكر وينقل أحاسيسه ومشاعره بحرفية من يضع فى الكلمة كل شيء. فهى الجسد وهى المكان وهى الضائقة وهى الفرج وهى أخيراً الملجأ المطمئن الذى يأوى إليه ليحميه من كل أشكال المخاوف التى تحدق به فى عالم غير مقتنع به يحاول مرعوباً مسحوراً أن يكشف أسراره ويفك طلاسمه بروح طفل حذر جرىء عيناه تبرقان كشفرة خنجر يمانى.

إن دمّاج روائى النبرة الخافتة والصورة المتكاملة الأبعاد بكل نتوءاتها وظلالها والتى لا يمكن لنا مع ذلك تسميتها بالفوتوغرافية، لأنها تنأى بكل مضامينها وطقوسها عن هذه الصفة الجادة خاصة وأنها منجزة فى ذاكرة اللغة قبل مخيلة الكاتب الذى وهو ينقلها لنا، لا يجرو على أن يخدش صفو إصغائه لها وعذوبة انسياقه وراءها لا بوعى إيديولچى ولا بتقنية مركبة ومعقدة ولا حتى بتداعيات حلمية أو سواها.

هكذا يقودنا دمّاج إلى قصور الخرافة العربية حيث النساء والجوارى والغلمان والحرس المفتون بالأسرار والملوك المؤطرين بالحجّاب والحواشى والشعراء المدّاحين فى قصر الإمام اليمنى كاشفاً خباياه متسللاً إلى دهاليزه وتحت أردية نسائه الملونة بالشهرة والخوف.

«الرهينة» واقع حكاية لا حكاية واقع يمكن أن يتحقق أو هو قد تحقق، عاشه المؤلف أو كاد، أهميتها أنها تخرج من خزائن الذاكرة العربية فى بلد عربى هو اليمن. هذا اليمن الذى يدخل الألف الثالث الميلادى وعلى كتفه جلباب الجبل المطرز ببهاء العمارة العربية

الأصيلة والموشى بالمدرجات الزراعية الأليفة التى، تغسل أقدامها فى بحيرة سبأ وسدها الأسطورى تحرس قيلولته أشجار القات فى انتظار عودة الأمطار الموسمية والأبناء المهاجرين فى كل أنحاء المعمورة.

بين ملامح المعاش/ المتخيل اليمنى وبين إيماءات واختلاجات الموروث العربى الإسلامى ترتسم «الرهينة» مثل شريحة عمودية لحالة عربية تتجاوز حدود اللغة والأدب والاجتماع لتعكس بمراياها الداخلية سؤال الزمن العربى الإسلامى بين الماضى والحضر، هذا الأخير الذى صار يدير ظهره كلياً عن المستقبل ليستقبل صور ماضيه وحدها لا منازع، مفتوناً بها تاركاً شعوباً ومصائر فى وحل المعاش وانهيار العالم حواليه. إنها تطرح السؤال بشكل جديد وكأنها لا تريد جواباً .تلك عفوية دمّاج فى هز جدران الحاضرة العربية واليمنية بالذات.

ولكن تبقى «الرهينة» يمنية بسلاسلها وملامحها وجدرانها وشبقها وسطوتها وبندقيتها وإمامها وقمرها «الحالى» المفتون بسهوبها وسفوحها.

سيرة حياة:

- ولد زيد مطيع دمّاج عام ١٩٤٣ فى لواد إب فى اليمن وبدأ تعليمه لدى (الكتّاب) «المعلمة» حيث حفظ القرآن الكريم.

- درس الحقوق فى جامعة القاهرة ، والصحافة فى جامعة صنعاء.

- أنتخب عضواً فى أول برلمان يمنى عام ١٩٧٠ ومن ثم رئيساً لجنة الثقافة فيه.

ـ عين محافظاً للواء المحويت وانتقل إلى العمل الدبلوماسى حيث يعمل حالياً دبلوماسياً فى سفارة اليمن فى لندن.

صدرت له المؤلفات التالية:

١ ـ طاهش الحوبان (قصص) ١٩٧٣.

٢ ـ العقرب (قصص) ١٩٨٢.

٣ ـ الرهينة (رواية) ١٩٨٤.

٤ ـ الجسد (قصص).

٥ ـ أحزان البنت مياسة.

رقم الإيداع ٩٩/١١٧٦٥

I.S.B.N-----------------------------

977 - 01- 6412 - 7



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل . للشاب . للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩

١٢٥ قرشاً

